يا أخي!

عش ودع غيرك يعيش

الكتاب : يا أخي عش ودع غيرك يعيش (قصص قصيرة)
المؤلف : عبدالله البنعلي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/٤٣٠٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 129 - 1

الناشر
شمس للنشر والإعلام
القاهرة : ٨٠٥٣ ش الجامعة الحديثة. الهضبة الوسطى. المقطم
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

قصص ملهمة من الحياة

يا أخي

عش ودع غيرك يعيش

عبد الله البنعلي

إهـــداء

إلى أحب والعز والكرم والفضيلة ... والدتي.

وإلى الوردة الندية، إلى حبيبتي وشريكة عمري،

إلى زوجتي الغالية.

- حكمة :

سأل أحد طلاب العلم معلمة الشيخ الجليل:

- من كان معلمك أيها المعلم؟

- كثيرون يا بني، ولكن في الواقع كانوا ثلاثة: كلبٌ وصبيٌّ ولص.

فسأل الطالب مرة أخرى:

- ماذا تعلمت من اللص؟

فأجاب

- فقد حدث أني أودعت جاري مفتاح بيتي عندما كنتُ مسافرًا، ولما عدتُ؛ كانت الساعة متأخرة جدًا في الليل، ولم أشأ إيقاظه، ثم صادفت رجلاً وطلبتُ منه المساعدة في فتح الباب، وفي لمح البصر فتح الباب، فرجوته أن يخبرني كيف فعل ذلك، فقال: أنا لص وهذه مهنتي... دعوته إلى منزلي، فمكث عندي أسبوعًا كاملاً. وكان يخرج كل ليلة ويقول لي: أنا ذاهبٌ إلى العمل، أما أنت فأكثر من الصلاة والتأمل والتعبد لعلها تنفعك... وكلما عاد سألته إن غنم شيئًا وكان جوابه دومًا: لا شيء الليلة ولكني سأحاول غدًا...

يا بني، منه تعلمت أن لا أيأس من التقرب وطلب الرحمة والمغفرة، فإن لم يُستجاب لدعائي اليوم فربما غدًا سيُستجاب لي... كانت كلمات ذلك اللص تعطيني دومًا الإصرار والقوة على المتابعة والمثابرة.

- أكتفي هنا بقصة اللص، مع إن بطلها لص غير أنها تحث على المثابرة وعدم اليأس.

فهرس الكتاب

- المقدمة ٩
- يا أخي! عش ودع غيرك يعيش ١٥
- الحب يأتيك من حيث لا تدري ٤٥
- احزري يا أمي! لقد وجدت الحب ٧١
- ياسمين والقديسة ٨٩
- حوار فوق السحاب: بالتسامح والغفران نحيا ١١١
- الفضائية التي أيقظت الموتى ١٤١
- الهروب إلى الصحراء ١٥٩
- المؤمنة و الملحد ١٧٧
- شبح تايلاند ١٩٥
- الختام: حوار مع رجل أجّله وأحبه في الله ٢٣٥

مقدمة الكتاب

كما سطرها الكاتب

عزيزي القارئ، هذه المجموعة القصصية التي يتضمنها هذا الكتاب تحت عنوان "يا أخي! عش ودع غيرك يعيش"، هي نسج خيال؛ وإن بدت واقعية في البعض من أجزائها.. كتبتها أصلاً باللغة الإنجليزية، وقمت بترجمتها بناء على إلحاح ذويِّ وأحبابي وأصحابي.

يركِّز الكتاب بصورة أساسية على بعض القضايا مثل : الحب، والتسامح، وحقوق المرأة، وحرية العقيدة، وحرية التعبير، والتفكير النقدي، بالإضافة إلى قضايا أخرى يواجهها الناس خلال حياتهم.. حيث تحوي هذه القصص جرعة جيدة من المعرفة والإلهام، وكذلك الكثير من الأفكار التي تتطلب المزيد من التأمل، وأيضًا الكثير من الأسئلة المعلقة والتي يجب على القارئ التفكر بها والإجابة عليها.

ويوجه الكتاب أيضًا اهتمامنا إلى شيء مهم، ألا وهو سلوكنا نحو الآخرين من بني جنسنا. حيث يظل ما نؤمن أو لا نؤمن به من دين أو مذهب أو فكر؛ مسألة يدور حولها الجدل.. ولكن كيف نتصرف حيال ذلك؟ هذا ما يصنع الفارق في حياتنا وحياة الآخرين.

وكما يقول المثل العربي القديم: " لكي تكون سعيدًا عليك أن تكون إنسانًا صالحًا". فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف أكون إنسانًا صالحًا؟

من المعروف - إلى حد كبير - أن الحب وحدة يقود إلى الفضيلة، فالإنسان المحب يكون دومًا صالحًا، وهذا الصلاح حتمًا سيقود صاحبة إلى الحكمة، والحكمة كما هو متعارف عليه؛ تقود إلى الفضيلة، ورغم ذلك، فإن الفضيلة -وفقًا لما أراه- تعني أن نفهم ونتقبل الآخرين بغض النظر عن طبيعة معتقداتهم أو جنسهم، وأن نعتبر أنفسنا رفقاء في الإنسانية نتشارك نِعَم الله علينا، ونحترم الأرض والمخلوقات التي عليها.

سوف تجد عزيزي القارئ في ثنايا كل قصة من هذه القصص حِكمًا ودروسًا مستقاة من حياة وقصص البشر، حيث ستقرأ بين ثنايا القصص كيف كان علاء يهرب من حياته متخفيًا وراء لحيته وإدمانه، حتى لقي محبوبته السابقة التي كسرت قلبه قبل سنوات عدة، والتي جعلته يهمل نفسه وحياته، حيث كان لصراحتها المباشرة وكذلك الذكريات التي استرجعها، عندما قالت له: "تبدو أكبر سنًّا من عمرك الحقيقي" ما جعله يدرك أن عليه أن يغيِّر من نفسه.. إذا أراد أن يصبح سعيدًا.

وسوف تقرأ أيضًا قصة "كارول" تلك الفتاة البريئة والتي جعلها أصدقاؤها تكتشف الحب والسعادة في الطرق الصوفية، حيث

تلاقت ـ خلال أسفارها ـ مع الكثير من الأشخاص الذين تمنوا لها الخير، وكان هؤلاء الأصدقاء الجدد يتوقون لمساعدتها في معرفة وتعلم دروب الفكر الصوفي، غير أن عليها أن تكتشف أولاً الأسباب الحقيقية وراء تغير منهاج حياتها واختيار ما هو أنسب وأصلح. وكيف جابت العالم بحثًا عن الحب الأزلي، والسكينة والطمأنينة.

وستتعرف أيضًا على السبب الذي دفع البعض إلى تبني منهج غير ديني كطريقة حياة، والسبب الذي دفعهم للتخلي والابتعاد عن الأديان خلال بحثهم عن التحرر والسكينة والسلام.. أو كما كانوا يعتقدون، وكيف أن الإعلام الفضائي الحُرَّ أصبح وحشًا مخيفًا يرهب الأصدقاء قبل الأعداء.

وستقرأ أيضًا عن أنانية وغرور الشيطان ـ أعاذنا الله منه ـ عندما أجاب باستعلاء وتكبر قائلاً: " أنا خيرٌ منك، وتذكر أنني ملاك ملعون ـ أو كما ادعى أيضًا ـ الملائكة لا يتناسلون مثلكم بني البشر حيث أنكم تتناسلون نظرًا لقصر حياتكم الحيوانية على الأرض، وهذه هي وسيلتكم للبقاء، في حين أن حياتي لا متناهية حتى يوم الدين، ويمكنني التمدد لأكبر مساحة ممكنة حسب رغبتي. كما أنه باستطاعتي أيضًا أن أتواجد وأظهر في أي صورة تروق لي".

كُلي ثقة عزيزي القارئ بأن هذه القصص والأفكار سوف تساعد على إعمال وتنشيط خيالك تمامًا كما حدث معي.

وأودُّ أن أؤكد أن الأسماء التي وردت في ثنايا وأحداث هذه القصص ليست أسماءً حقيقية، ولا تحمل أي تشابه لأسماء أشخاص أحياء أو موتى.

عبد الله البنعلي

يا أخي! عش ودع غيرك يعيش

لنتمكن من تحرير أنفسنا، يجب علينا أولاً أن نحرِّر
النصف الأخر من الجنس البشري... النساء

إيميلين بانخريست

كانت مريم تركض هاربة بأقصى سرعة لديها كغزال صحراء نحيف الجسم؛ قوي العضلات، دون أن تلتفت إلى الخلف، وكان البائع العجوز يهرول محاولاً الإمساك بها، غير أنها استطاعت أن تفلت منه عن طريق المراوغة بين حشود المارة.

وعندما وصلت أخيرًا إلى المنزل، جلست عند مدخل الباب لبعض الوقت لتهدئ من سرعة تنفسها وتستعيد قواها.. وعندما دخلت إلى منزلهم القديم المتهالك، أخذت أخواتها وأخوها الصغير في الغناء والتصفيق، وكانت الفرحة والبهجة يطلان من وجوههم البريئة عندما أعطتهم اللعب التي أحضرتها لهم.

شعرت مريم براحة عميقة عندما أخذوا هدايا العيد..

إنها المرة الأولى التي تقوم فيها بمثل هذا الشيء... السرقة، ولكن، ما عساها أن تفعل وهي ترى جميع الأطفال فرحين إلا أخواتها وأخاها؟.. كانت تعتقد أن ما فعلته يمثل أكثر الأشياء مغامرة بالنسبة لها خاصة وإنها في الثالثة عشرة من عمرها.. وأكثر ما كان يخيفها هو حجم الغضب الذي سيكون عليه والديها إذا ما علموا بسرقتها لتلك اللعب.

وعندما عاد والداها إلى المنزل صفر اليدين بعد عمل وعناء يوم كامل في الحقل، أسرع أصغر الأولاد سِنًّا ـ كما أنه الأكثر ثرثرة ـ ليعانق والدته قائلاً: "انظري يا أمي! انظري إلى ما أحضرته لنا مريم!" ثم أراها آلة الهرمونيكا البلاستيكية والمختوم عليها "صُنع في الصين".

وحين علم الوالد بما فعلت نظر إليها قائلاً: "لو كنتُ أملك المال، لما تركتكِ تفعلين ما فعلتِ، ولكنتُ اشتريتُ لكم جميعًا تلك اللعب التي تحبونها".

وعندما انتهى والدها من كلامه، حاولت مريم أن تجعله يكفّ عن الكلام في هذا الأمر، حيث أنها دائمًا كانت تكره أن يتم تذكيرها بمدى فقر وعوز أسرتها. وتمنت لو أن والدها لم يقل ما قاله؛ ولو كان عاقبها بالضرب، أو فعل أي شيء أخر بدلاً من أن يقول تلك الكلمات الجارحة بالنسبة لها. شعرت وكأن كلماته قنابل تُلقى فوق رأسها من طائرة مقاتلة.

استمر والدها في تقديم الاعتذار والأسف عن كونه فقيرًا، وعلى عدم قدرته أن يكون على قدر المسؤولية كربٍّ أسرة. غير أنها لم تستطع أن تتحمل المزيد من ذلك. فألقت بنفسها في حِجْره، وهي تلكم بطنه السمين بيديها النحيفتين الصغيرتين محاولة أن تجعله يصمت، متوسلة إليه أن يكفَّ عن الكلام.

ثم نهضت من مكانها وهرولت نحو غرفتها، مغلقة الباب بشدة خلفها وارتمت على فراشها وهي تبكي وتصرخ مرددة: "كفاك توقف عن الكلام، توقف عن الكلام".
طلبت منها والدتها أن تفتح الباب، إلا أنها رفضت ذلك.. فقد كانت تريد أن تُترك بمفردها.

بلغ الإجهاد منها مبلغه، ونامت كالملاك الصغير.

استيقظت بعد بضع ساعات قليلة وفتحت الباب ملقية نظرة خاطفة على المكان المخصص للجلوس حتى تتأكد أن والدها غير موجود. ثم توجهت إلى المطبخ وشربت كُوبًا من ماء الصنبور. ثم عادت إلى الفراش مرة أخرى، وأخذت تتذكر مدرستها الابتدائية وكيف كانت مصدر حماية ودفاع بالنسبة لأخواتها، وهي حامية لهن من أولئك التلاميذ الأوغاد ومن طرائفهم السخيفة المليئة بالحماقة والغباء.

قالت في نفسها: إنها لم تكن مدرسة، لقد كان منزلاً منعزلاً فظيعًا تسكنه الأشباح، استأجرته إدارة التعليم وحوَّلته إلى مدرسة، وكانت الفصول الدراسية الخمسة التي تحتويها المدرسة صغيرة للغاية ومكتظة بالأطفال، حيث وصفتها ذات مرة إحدى المعلمات بأنها تشبه علب السردين.

وكان يحدث بين الحين والأخر، أن يُصاب أحد الأطفال بالإغماء بسبب نقص الهواء في المكان، أو بسبب الحرارة المفرطة، أو نتيجة لسوء التغذية.. أو نتيجة لتناول ماء الشرب الملوث.

وكان المعلمون يتصفون بالوقاحة والتعجرف وعدم الرحمة، حيث كانت وسيلتهم الوحيدة لتحقيق الانضباط هي ضرب الأطفال بعصي الخيزران، والذي كان ينمو بغزارة في أرض المدرسة.. وكان الأطفال يبكون ويصرخون من شدة الألم الناتج عن الضرب وكان صوتهم يُسمع ويدوي في كلّ أرجاء المدرسة.

كانت مريم مختلفة تمامًا عن بقية الأطفال، حيث كانت تكتم ما تعانيه من ألم بداخلها، وكانت ترى دائمًا أن هذا بمثابة الثمن الذي كان يجب أن تدفعه من أجل الحصول على التعليم.

وبعد سنين من الكفاح والاجتهاد والمعاناة تخرجت مريم من المدرسة الثانوية حاصلة على أعلى الدرجات وشهادة التفوق. وكان والداها فخورين بها للغاية حيث كانا كلاهما أُميّين.

بعد شهر فقط من التخرج، دقَّ جرس التليفون والتقط والدها المريض سماعة التليفون ليرد على المتصل؛ الذي قال:

- هل من الممكن أن أتحدث إلى مريم؟ هل هذا هو منزل مريم؟

وهنا بدأت قدما الأب ترتجف وتحوَّل وجهه إلى اللون الأحمر وهو يفكر في نفسه: "ما المشكلة التي فعلتها هذه المرة؟" لأنه يعرف ابنته جيدًا؛ وذلك رغم طيبة قلبها وذكائها؛ كانت تحب المشاغبة مع الكل، وتفعل عكس ما يُطلب منها.. ثم استجمع قواه ورد بلسانٍ متلعثم:

- نعم هذا هو منزلها. هل لي أن أعرف مَنْ المتصل؟

- معك مشرف البعثات في وزارة التربية والتعليم.. هل من الممكن أن أتحدث إليها أو لأحد والديها؟

- أنا والدها.

- تهانينا يا سيدي. لقد وقع الاختيار على ابنتكم من بين ثلاثة آلاف طالبًا وطالبة للفوز ببرنامج التبادل الطلابي في أنحاء

العالم، حيث يمكنها أن تدرس في الصين أو الولايات المتحدة.. طبعًا بعد موافقتكم سيدي الفاضل.

وواصل كلامه قائلاً:

- تفضل سيادتك إلى مبنى الوزارة، الطابق الثاني، مكتب رقم (٢٣)، وبحوزتك ست صور فوتوغرافية لها، وشهادة الميلاد والبطاقة المدنية الخاصة بها وبك.

أحسَّ والد مريم أنه عاجز عن الكلام، غير أنه أستطاع أن يقول:

- حسنًا، سأخبرها بذلك.

ثم أنهى المتصل مكالمته.

وعندما عادت مريم إلى المنزل بعد يوم بحثٍ طويل عن وظيفة.. فتحت الباب الأمامي وأخذت تنادي بصوتٍ عالٍ:

- هل هناك أحدٌ بالمنزل؟

- نعم. أنا هنا.

فتوجهت نحوه، ثم رمت عقد عمل بين يديه قائلة:

- مفاجأة! لقد حصلت على وظيفة.. سوف أعمل بدوامٍ كامل كجليسة أطفال لدى إحدى الأُسَر الكريمة.

التزم والدها الصمت، غير أن بعض الدموع القليلة ذرفت من عينيه. عندما لاحظت مريم ذلك جلست أرضًا على ركبتيها، وجففت دموعه بيديها وسألته:

- ألست سعيدًا يا أبي؟.. لا تقلق، ستكون الأمور على ما يرام. بدايةً من اليوم ليس هناك داعٍ على الإطلاق أن تقلق عليَّ، وعلى الأطفال، أو على قلة المال وسوء الأحوال.لقد أغدقتْ هذه العائلة الكثير من المال على الجليسة السابقة وحتمًا سيفعلون الشيء نفسه لي.

- إنني فخورٌ بكِ للغاية. أنا لا أودُّ أن أفقدكِ مثلما فقدتُ أمك (كانت الأم قد توفيت قبل شهر من تخرج ابنتها من الثانوية).

- ماذا تقصد بقولك "تفقدني"؟

وواصلت كلامها قائلة:

- أبي، أودُّ منك أن تنظر في عيني.

رفع أبوها رأسه وأخذ ينظر إليها بنوعٍ من الفخر المصحوب ببعض الخوف من الغربة التي قد تعاني منها عند سفرها، أو الانزلاق فيما لا يُحمد عقباه.

فبادرته قائلة:

- إنك لن تفقدني أبدًا، سأكون بجوارك دومًا. وحتى لو تزوجتُ، فسيكون لي شرط؛ وعلى زوجي المستقبلي أن يقبله؛ وهذا الشرط هو أن يعيش معي هنا في منزلنا لأكون بقربك.

- إنكِ لن تذهبي إلى العمل غدًا.. ولن تتزوجي وتقيمي معي هنا في منزلي، هل تفهمين ذلك؟.. هذا منزلي!.. بل سوف تكملين دراستكِ وسيكون لكِ منزلك الخاص.

- إنني أستطيع أن أحسّ بنبرة صوتك يا أبي، وأستطيع أن ألاحظ التغيرات التي حدثت على وجهك. أنت لا تبدو كأبي الذي أعرفه.. هل تخفي عني شيئًا؟!

أخذ الأب نفسًا عميقًا ثم أشعل سيجارة، ولكنه قبل أن يتمكن من مواصلة الكلام؛ أمسكت مريم بالسيجارة وجذبتها من فمه، قائلة:

- كم مرة أحتاج أن أذَّكرك؟.. الطبيب قد حذرك: إذا لم تقلع عن التدخين، فسوف تموت.. نحن نحتاج إليك، اللعنة على تلك السجائر وعلى من صنعها! نحن حقًا نحتاجُ إليك.

- دعيني يا مريم أدخن هذه السيجارة فقط، أتوسل إليكِ.

ثم بدأ يتحدث إليها برفق:

- أريدك أن تنصتي إليَّ بعناية.

التقط الأب السيجارة مرةً أخرى، وأخذ منها بضع نفخات وطلب منها أن تجلس. ثم كرَّر قائلاً:

- أصغِ إليَّ جيدً.

لم يكن قد سبق لها أن حظيت بحديثٍ جادٍ ومهم مع أبيها من قبل، لذلك جلست والتزمت الصمت.

بدأ والدها يتحدث ببطء وبعناية موجهًا عينيه إلى الأرض قائلاً:

- لطالما وضعتُ ثقتي فيكِ، وتمسكتُ بإيماني العميق بشخصيتك. ولم أعتقد أبدًا أنني سوف أحتاج يومًا للجلوس معكِ والتحدث إليكِ من القلب إلى القلب، كلٌّ منا كان يفهم الآخر حتى بدون كلام.

اتكأ والدها إلى الخلف ومدَّ ذراعيه إلى الأعلى ثم استرسل قائلاً:

- لدي بعض الأخبار الجيدة والسيئة في نفس الوقت.

- لقد جعلتني أشعر بالقلق.. مهما كانت هذه الأخبار، فقط قلها بسرعة يا أبي، ومن فضلك أبدأ بالأخبار السيئة أولاً.

ابتسم والدها في وجهها ثم واصل كلامه قائلاً:

- هكذا أنتِ فتاتي العجولة، الحلوة، الرائعة.

ثم استرسل ولكن هذه المرة ببهجة ومرح:

- عندما وُلدتِ، لم أكن حقًا سعيدا، يحزنني قول ذلك، كنت أريد ولدًا، حيث أنني اعتقدتُ إن الولد سوف يساعدني بدرجة أكبر في عمل الحقل. غير أنه في اللحظة التي رأيتكِ فيها؛ حمدتُ الله على أن رزقني بكِ.. لقد كنتِ دائمًا مصدرًا للسعادة لي ولأمك.. إنك حقًا عظيمة يا مريم، أنتِ لا تعرفين كم قدمتِ من جهد لأجل هذه الأسرة، ولا أعرف كيف سأتصرف وأدبر أموري من دونك.

قفزت مريم للأعلى ووضعت قبلة على خده، ثم قالت:

- حسنًا يا أبي، دعنا نبدأ بالأخبار السيئة.

- لقد كان هذا هو الخبر السيئ.

- حسنًا.. حسنًا، ما هي الأخبار الجيدة إذًا؟

- قبل أن أقول أي شيء، أريدكِ أن تعديني بأن توافقي على ما سأقوله.

- أجل! إنني لا أعرف ما هو ذلك الأمر، ولكنني موافقة.

ضحكا ببهجة وفرح، رغم أنها لم تكن تعرف السبب الذي دعاها للضحك، ربما لأنها أرادت أن تشارك والدها الضحك والسعادة التي كانت ترتسم على وجنتيه، والتي قلَّما رأته بها من قبل.

ثم قال لها بحنان الأبوة:

- اذهبي واغتسلي وغيّري ملابسك، ثم أعدي لنفسك كوبًا من الشاي بالنعناع، واستعدى لسماع الأخبار الطيبة.

وبينما كانت في طريقها إلى غرفتها همهمت قائلة: "نعم سيدي وحبيبي وولي أمري.. سأكون معك خلال بضع دقائق، وسوف أقول نعم، نعم ونعم لأفضل أب في العالم".

وبينما كانت تقترب من والدها وهي تحمل فنجان الشاي في يد وبعض البسكويت المخبوز منزليًا في اليد الأخرى؛ نظر إليها والدها وكأنه ينظر إليها للمرة الأولى وأدرك فجأة كيف أصبحت ابنته كبيرة وجميلة...

- وماذا عني؟ ألا يمكن أن أحصل على فنجان من الشاي أيضًا؟

- لا، ليس حتى تخبرني عن الأخبار الطيبة. ومن ثم لو أردتني أن أطبخ لك خروفًا كاملاً سأفعل.

- حسنًا، اجلسي إذًا... الأخبار الطيبة هي أنكِ سوف تلتحقين بالجامعة.

- ماذا؟! ما الذي تتحدث عنه يا أبي؟ إن كل ما أعرفه هو أنني سوف أذهب غدًا للعمل كجليسة أطفال.

- لا تتعجلي واسمعي ما أودُّ أن أخبرك به.. هل أنتِ مستعدة لتسمعي؟

كانت مريم في حالة رفض تام لما سمعته، غير أنها التزمت الصمت.

- اسمعي يا ابنتي العزيزة، اتصل بي شخص من وزارة التربية والتعليم اليوم، وأبلغني بأنه تمَّ اختيارك للحصول على برنامج منحة دراسية، ويمكنك أن تختاري بين الدراسة في الصين أو الولايات المتحدة، حيث يمكنك الذهاب إلى الكلية التي تودين الدراسة بها، وأنا ليس لدى أي اعتراضات على ذلك، فهذا بالنسبة لي حلم تحول إلى حقيقة. وغدًا سوف نذهب إلى مقر الوزارة معًا ونرى ما إذا كان من الممكن الحصول على المزيد من المعلومات والتفاصيل حول ذلك، وكل ما نحتاج إليه هو الصور الفوتوغرافية وبطاقتك المدنية.

- وماذا عنك، وأخواتي وأخي.. من سيهتم بأمركم؟

- دعينا من ذلك الآن، لننتظر حتى الغد ثم بعد ذلك نتحدث في الأمر. وبالنسبة لمسألة من سيهتم بأمرنا، فالله يقف بجانبنا

وسنكون بخير، أنا لدي بعض المدخرات التي يمكن أن أعتمد عليها عندما تسافرين.

سارت الأمور على ما يرام مع مريم.. حيث التحقت بجامعة شهيرة تقع في الجزء الشرقي من الولايات المتحدة.

وبعد خمس سنوات تخرجت في الجامعة حاصلة على درجة البكالوريوس في الأحياء المجهرية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وكانت تفكر في مواصلة الدراسة والحصول على درجة الماجستير، إلا أن والدها وافته المنية بعد أسبوع من تخرجها. وقد انتقلت أخواتها وأخوها للعيش مع عمها الغني الذي لم يسبق لها أن قابلته، غير أنها كانت دائمًا تكرهه بسبب ما سمعته عنه، وأيضًا من خلال الهمسات المتكررة والمحادثات التي سمعتها من والديها عن جشعه، وعدم مبالاته، وسوء أخلاقه. لذلك قررت أن تعود على الفور إلى الوطن وأن تقوم بترتيب الأمور.

عندما عادت إلى الوطن، كان عليها أن تحارب على جبهات مختلفة.. فمن ناحية، كانت تريد أن تحصل على حُكمٍ برعاية أخواتها وأخيها. ومن ناحية أخرى، كان عليها أن تجد وظيفة مناسبة تتلاءم مع مؤهلاتها الجديدة التي حصلت عليها.

أما بالنسبة لقضية رعاية أخواتها وأخيها، فقد كسبت القضية بسهولة؛ ولكن بعد ستة أشهر، حيث أن السجل الجنائي جعله

يخسر معركة رعاية الأطفال، وكان هدفه الحقيقي من وراء القيام بتلك الرعاية، هو سرقة ميراث هؤلاء الأطفال اليتامى.

لم تستطع مريم أن تجد وظيفة كمتخصصة بيولوجيا مجهرية، وانتهى بها الحال أن تعمل كمدرسة لمادة الأحياء.

وبعدها قامت ببيع المنزل والحقل اللذين تركهما والدها واشترت منزلاً صغيرًا وجميلا في إحدى ضواحي المدينة بالقرب من المدرسة الثانوية التي تعمل بها.

كانت المنطقة الجديدة التي تسكن بها هادئة تمامًا، على عكس الضوضاء والجلبة التي كانوا يعانون منها في المنطقة القديمة التي كانوا يعيشون فيها قبل ذلك، ولكن حتى هذه المنطقة لها مساوئها، فالجيران مثلاً لم يحيوهم أو يرحبوا بهم أو يحاولوا التعرف عليهم.. اعتقدت أن هذا أمر غريب لم تعتد عليه.

خلال عطلة الأسبوع الثالث بعد انتقالهم إلى منزلهم الجديد، قررت مريم وأخواتها أن يقومن بتنظيف النوافذ المحملة بالغبار ويزيلن الأعشاب البرية التي كانت تسد طريق المدخل المؤدي إلى الساحة الأمامية للمنزل... وأثناء القيام بذلك؛ توقفت سيارة سوداء اللون من طراز (رينج روفر) بالقرب من الرصيف المحاذي للمنزل، أُنزلت نافذة المقعد الخلفي للسيارة، وأطلت سيدة حسنة المظهر وسألت أخت مريم الصغيرة: "أين أمك؟"

فأجابتها الفتاة: "أمي ليست موجودة. هل تودين التحدث إلى أختي؟"

لم تنتظر الفتاة ردًّا من السيدة، حيث هرولت مسرعة إلى المنزل وهي تصيح: "مريم، مريم! هناك سيدة تريد التحدث إليكِ".
خرجت مريم من المنزل ونظرت إلى السيارة واعتقدت أن هذه السيدة لا بد أن تكون من أثرى الأثرياء، فمن يستطيع أن يمتلك مثل هذه السيارة؟

اقتربت مريم من السيدة، التي ما زالت تنتظر داخل السيارة والنافذة مفتوحة، قائلة:
- مرحبًا بكِ. أنا مريم، لقد انتقلنا إلى هذا المنزل منذ ثلاثة أسابيع.
- أنا زينب. مرحبًا بكم في الحي. أودُّ أن أخبرك أننا نتجمع في عصر كل يوم جمعة في منزلي، لنتجاذب أطراف الحديث. يمكنك الحضور والتعرف على نساء الحي؛ إذا كنت ترغبين في ذلك.
ثم أعطتها السيدة بطاقة تعارف تحمل عنوانها ورقم تليفونها، وغادرت.
نظرت مريم من حولها، وابتسمت في وجه أخواتها وهمست لنفسها: "هذا جميل، الدنيا لسه بخير".

عندما جاء موعد اللقاء، ارتدت مريم ملابس جميلة ولكن متواضعة، ووضعت بعضًا من الماكياج الخفيف، ثم اتجهت نحو منزل زينب أملاً في مقابلة بقية الجيران.

كانت مبتهجة للغاية وتمشي ببطء على قدر الإمكان، فلم تكن تريد أن تغرق ملابسها بالعرق، أو أن يعبث العرق بماكياجها الذي وضعته... تمنت لو كان لديها سيارة، طبعًا ليست بذلك البذخ الذي تظهره سيارة زينب؛ سيارة صغيرة الحجم مكيفة الهواء سوف تؤدي الغرض.

بعد خمس عشرة دقيقة، كانت قد وصلت أمام منزل زينب.. لم يكن منزلاً كما تخيلته، فقد كان قصرًا مكونًا من طابقين ويوجد أمامه فناء متناسق ومغطى بالعشب الأخضر والورود البيضاء والحمراء،لم يسبق لها أن رأت فناءً بمثل هذه المساحة الكبيرة، وكان يتوسطه طريق للسيارات مرصوف بأحجار متشابكة.

انتابها إحساس بأن تغير من وجهتها وأن تعود أدراجها إلى منزلها، حيث كانت ترى أن تلك الأنواع من الشخصيات مختلفة عن نمط حياتها وشخصيتها، أو الطبقة التي تنتمي إليها. حاولت أن تفكر في عذر أو مبرر تقدمه إلى زينب في المرة التالية التي تراها فيها، ولكنها لم تستطع.

وأخيرًا توصلت إلى قرار بمواصلة طريقها نحو الباب الأمامي لمنزل زينب، ثم دقت جرس الباب بتردد...

فتح الباب فتى في السابعة عشر من العمر، يرتدي زيًّا رياضيًا وفي يده كرة سلة يرميها بالأرض من أمامه ومن خلفه... ومما أثار دهشتها، أن هذا الفتى هو "صالح"، أحد الطلاب الذين تدرسهم مادة الأحياء في المدرسة الثانوية الخاصة التي تعمل بها... فحياها الفتى قائلاً:

- مرحبًا أستاذة مريم. أمي ليست موجودة بالمنزل.

- ولكن والدتك هي التي دعتني للحضور إلى هنا.

- أنا متأسف. إذًا أنتِ هنا من أجل حضور الاجتماع الأسبوعي وليس لإخبارها أني كنتُ غائبًا يوم أمس.. كم هو جميل أن تشرفينا بالحضور إلى هنا أستاذة مريم.

وفى تلك الأثناء كانت والدة صالح تنادي قائلة:

- مَنْ بالباب يا صالح؟

- إنها المعلمة مريم مدرسة الأحياء التي تدرسني في المدرسة.

سألت والدته بينما كانت تقترب من الباب الأمامي: " أي معلمة يا صالح؟".

- يا هلا بكِ، هذا أنتِ الجارة الجديد، ما شاء الله جارة وأيضًا معلمة ابني! حقًا يا لها من مصادفة جميلة ويا له من عالم صغير.. تفضلي بالدخول يا عزيزتي.

ثم قامت السيدة زينب بتقديم مريم لكل السيدات الموجودات في الاجتماع. أُعجبت مريم ببعضهن، خاصة الظريفات والمرحات

منهن. لكنها لم تحب القليل منهن حيث كُنَّ سيدات غير متعلمات، ثريات، سمينات ومتعاليات... أو كما اعتقدت هي نحوهن.

كانت زينب سيدة في متوسط عمرها، مشرقة وتجيد التحدث، وكان هناك توافق كبير بينهما واكتشفا أنهما يتقاسمان الكثير من الصفات، فكلاهما نشأ في أسرة فقيرة، وكانت مريم تشعر بإعجاب كبير تجاه زينب، وكانت دائمًا تتذكر الكلمات الحكيمة التي تحدثت إليها بها ذات مرة: "أن تكون فقيرًا لا يعني دائمًا أن تعيش في حالة من البؤس، بل إنها فرصة نحو تحقيق القدرة الإبداعية والشهرة، كما أنه من النادر أن نجد شخصًا وُلِد ثريًا ثم أصبح مبدعًا أو مخترعًا".

وخلال أحد تلك الاجتماعات، طلبت زينب من كل من (مريم وفاطمة وليلى) أن ينتظرن بعد مغادرة الجميع، حيث كان لديها مسألة مهمة تود مناقشتها معهن.

بعد أن غادر الجميع، طلبت منهن أن يذهبن معها إلى الساحة الخلفية للمنزل، حيث كانت قد أعدت منضدة وأربعة مقاعد هناك بالقرب من حوض السباحة.

عندما جلسن جميعًا بدأت كلامها قائلة:

- ما سأخبركن به الآن يجب أن يظل سِرًّا فيما بيننا، وإن كان من بينكن من هي ضعيفة وقد تسرب أو تُفشي هذا السر؛ فيمكنها أن تغادر الآن، ولستن مجبرات على قبول ما أوشك على

إخباركن به الآن، ولكن يجب أن توافقن على الاحتفاظ به كسر، سواء وافقتن على الانضمام لي أم لا.

قالت ليلى ذات الوجه النحيف خفيفة الدم؛ كما يصفها أصدقاؤها:

- زينب، أنتِ تجعلينا نشعر بالرعب، إذا كان ما تودين منا هو تهريب المخدرات، إذًا فأنا معكِ، أما غير ذلك فلا.

ضحك الجميع، باستثناء زينب. ثم واصلت كلامها قائلة:

- هيا يا فتيات، هذه بالفعل مسألة مهمة وجدية، ويجب أن نبدأ بها الآن، أقصد في الحال وفي هذه اللحظة، فهذه المسألة تتعلق بنا وببناتنا وحفيداتنا أيضًا. دعونا نكن جادات وعمليات الآن. رجاءً...استمعن لي حتى أنتهي.

ثم قاطعتها ليلى مرة أخرى ملوحة بيديها:

- أنا الشخص الوحيد الجاد هنا على ما يبدو، وهن لسن كذلك.

ضحكن جميعًا مرة أخرى بصوتٍ عالٍ.

بدت زينب وكأنها غير متقبلة للفكاهة والدعابة ذلك اليوم، فقالت بحزم:

- حسنًا، الصمت يا بنات، فأنا سأبوح بالسر الآن.. والرجاء، لا تقاطعنني ثانية، فلقد قمت باختياركن على وجه الخصوص، لكونكن متعلمات ومتحررات من براثن التخلف والفكر الجامد: النساء في هذا البلد معدمات ومهمشات للغاية، فهن يتمتعن بحقوق وامتيازات محدودة، في حين أن الرجال يتمتعون بكامل

الحقوق والامتيازات.. إننا بحاجة إلى تشكيل مجموعة عمل لنوصل أصواتنا ونرى ما إذا كانت أصواتنا ستُسمع أم لا.

ثم احتست رشفة من مشروب الكركديه المحلى الذي كان أمامها.

قاطعتها ليلى مرة أخرى قائلة:

- حسنًا، سرك سوف يظل محفوظًا يا زينب، ولكن بغض النظر عما تخططين للقيام به، فلا تضعيني في الحسبان، أنا سعيدة وراضية بما أنا عليه.

فابتسمت زينب وأخبرتها أن بإمكانها أن تغادر... ثم استدارت نحو فاطمة ومريم قائلة:

- وماذا عنكن؟

فردت فاطمة قائلة:

- سوف أبقى وأسمعك للآخر.

ثم أكدت مريم ذلك أيضًا قائلة:

- وأنا أيضًا.

شكرتهما زينب،وتركت ليلى تتوجه نحو الباب الأمامي بمفردها.

واصلت كلامها قائلة:

- انظرن يا فتيات، نحن لسن بمجرمات. فكل ما سوف نفعله هو أن نجعل القضايا الخاصة بالنساء تظهر على السطح وتصبح

واضحة أمام الجميع.. نريد أن نصبح مثل النساء الأخريات في كل أنحاء العالم.. نريد أن نحصل على كرامتنا بطريقة سلمية. إن ما سنقوم به ليس من أجل مصلحتنا الشخصية نحن، وإنما سيكون من أجل فتياتنا ولكل النساء في مجتمعنا. لا تخافا من أي شيء. فنحن لن نظهر أنفسنا الآن، ولكن سوف يحدث ذلك تدريجيًا.

عقَّبت مريم:

- أنا أحب التحدي، ولكن كيف سنقوم بذلك بدون أن نعرف الطرق التي سنعمل بها؟

- هناك الكثير من الطرق والوسائل للقيام بذلك مثل: الإنترنت، وإرسال الخطابات للصحافة المحلية والدولية، ومتابعة القادة في هذا البلد من أجل تغيير وتعديل القوانين القديمة والرجعية، ولن نطلب إلا ما قرره الشرع لنا. وأودُّ أيضًا أن أشير إلى أن زوجي لديه الرغبة لدعمنا ومساعدتنا في كل ما قد نحتاج إليه.

ثم توقفت للحظة وقالت:

- لستما بحاجة إلى قول أي شيء الآن. ولكن فكِّرا في الأمر. وإذا كنتما تودان المشاركة في ذلك، فيمكنكما الحضور يوم الثلاثاء في الخامسة مساءً من أجل مناقشة الخطة التي قمت بوضعها لتنفيذ ذلك.

التقت السيدات الثلاث بشكل سري على مدار خمس مرات متتالية كل يوم ثلاثاء. ثم بدأن في تنفيذ خطتهن بصورة فعلية من خلال الفيس بوك، والتويتر والبريد الإلكتروني، والخطابات والمقالات، وبالطبع كان عليهن استخدام أسماء مزيفة.

ثم انضم إليهن آلاف المعجبين والمعجبات المؤيدين لهذا التوجه، على كلا المستويين المحلى والدولي، وعبَّر الكثير من الرجال والنساء عن رغبتهم في الانضمام إلى جماعة (فخورة بأني امرأة).

غير أن السلطات الدينية أصبحت منفعلة وغاضبة من هذه الحركة، وخاصة عندما استضافت إحدى وكالات الأخبار الدولية الشهيرة زينب وهي مغطاة الوجه مع القيام ببعض التعديلات في نبرة صوتها.

وفى إحدى الليالي المظلمة وبينما كانت مريم تستعد للنوم في فراشها، دقَّ جرس الباب، فقامت بلف ثوب نومها حول خصرها، ثم فتحت الباب بدون أن تسأل عن هوية الطارق، حيث اعتقدت أنه أخوها الذي كانت تتوقع عودته بهذا الوقت إلى المنزل بعد حضوره لحفل عيد ميلاد صديق له.. غير أن الطارق كان ثلاثة من رجال الدين في زيّ مدني وعسكري بلباسه الرسمي، قاموا بدفعها على الأرض وتكبيل يديها بالقيود،

ثم هرعوا إلى داخل المنزل حيث قاموا بمصادرة حاسوبها المحمول، والأقراص المدمجة والمستندات وأي شيء يمكن أن تقع أيديهم عليه... وفي النهاية أخبروها أنها سوف تكون في ضيافتهم لبضع ساعات.

صاحت بهم أن يتركوها وشأنها.. ثم سألتهم:

ـ ماذا فعلت لتفعلوا بي كل هذا؟ ولماذا تعتقلونني من منزلي؟

ولكنها لم تجد سوى ردٍّ واحدٍ متكرر لهذه الأسئلة:

ـ كُفي عن الكلام !

كانت زينب قد علمت بما حدث بعد ذلك بقليل في نفس تلك الليلة، فأسرعت إلى منزل مريم واصطحبت أخوات مريم وأخاهم إلى منزلها.

أُودعت مريم في زنزانة التوقيف ليومين. وفي اليوم الثالث، تمَّ إحضارها إلى غرفة التحقيق. تكرَّر هذا الموقف عدة مرات خلال ذلك الأسبوع.. وخلال الأسبوع الثاني، تمَّ نقلها إلى زنزانة أخرى مع عدد قليل من النساء الأخريات. وكان عليها أن تسير حول ساحة التوقيف لمدة ساعة كل يوم وأن تستحم كل يومين.

وفي الأسبوع الثالث لها في التوقيف، تمَّ اصطحابها إلى غرفة التحقيق، وكان المحقق مختلفًا وصارمًا هذه المرة وله شوارب مفتولة، حيث أن الرجل الذي كان يقوم بالتحقيق معها بالسابق

من النوع الهادئ وكان متعاطفًا نوعًا ما معها؛ أو هذا ما اعتقدت.

- المحقق: ما اسمك؟

- مريم: في كل مرة تحققون معي، تسألونني عن اسمي. أنا متواجدة هنا منذ ثلاثة أسابيع وما زلتم لا تعرفون اسمي؟ لقد سئمتكم وسئمت من تكرار اسمي.

- المحقق: إن الشيء الوحيد الذي يربطك بهذا البلد وتقاليده هو اسمك الجميل. ولكن كما تعرفين، وبغض النظر عن اسمك، فعندما تعارضين الثقافة والعادات والتقاليد السائدة، فإنكِ لن تعودين جزءًا منا بعد الآن.

- مريم: هذه هي الحقيقة التي أنتم عليها جميعًا أيها الرجال.. كل من يخالفكم هو عدوكم. بسبب تعبيري عن آرائي ومطالبتي بحقوقي المشروعة أصبحت لا أنتمي إليكم! لم أعد مواطنة تنتمي إلى هذا البلد العظيم!.. نعم، أنتم على صواب، إنني نكرة، أنا لا شيء... من فضلك أخبرني: ما هي الجريمة التي ارتكبتها؟

- المحقق: إنكِ تهددين استقرار الأمن الوطني للمجتمع.

- مريم: يا إلهي! هل أنا حقًا فعلت كل ذلك. لسوء الحظ، الأمر تمامًا كما اعتقدت؛ إنكم جميعًا تعانون من مرض الشك. أي أمن وأي استقرار تتكلمون عنه؟ أنا لم أهدد

أمن واستقرار بلدي، هذا بلدي كما هو بلدك، وهذا البلد سيعيش بكل فئات شعبة وبولاة أمره إلى يوم الدين. كل ما أطلبه هو مساواتي بك من حيث العمل والراتب والتنقل، وغيرها من الأمور التي تتمتع بها نساء الدنيا والتي كفلها الشرع والقانون.

- المحقق: أنتِ في ورطة كبيرة سيدتي. ومن الأفضل بالنسبة لكِ أن تتصرفي بلطف وتجيبي على أسئلتي بشكل صحيح وإلا فسوف تقضين بقية حياتك في السجن.. هل هذا مفهوم؟

- مريم: نعم سيدي مفهوم.

- المحقق: مَن هو زعيم المجموعة التي تنتمين إليها؟

- مريم: ليس لي زعيم أو قائد، فأنا أقوم بذلك من المنزل بمفردي.

- المحقق: فقط أخبريني اسمها أو اسمه الأول وسوف أسمح لكِ بالعودة إلى أسرتكِ الآن.

- مريم: لقد أخبرتك، إنني أعمل بمفردي في ذلك. لماذا أحتاج إلى قائد أو زعيم للقيام بهذا الأمر؟ إنني موجودة هنا لسبب عادل، فعندما تشعر بالعطش، تذهب باحثًا عن الماء، وعندما تشعر بالظلم، تذهب باحثًا عن العدالة. وعندما يملك الرجال من بني جنسك كل الحقوق

والامتيازات، في حين لا يملك النساء أي منها، فعندئذٍ يكون من حق النساء أن يطالبن بحقهن في الحصول على نفس الامتيازات والحقوق... يا أخي نحن لا نحسدكم معشر الرجال، يا أخي عيشوا وتهنوا، ولكن دعونا نعيش كبشر لا أقل ولا أكثر. وأريد أن أعيد وأكرِّر لك سيدي أني لست بحاجة إلى قائد أو زعيم ليخبرني بهذا، كل ما طالبتُ به من خلال كتاباتي ومحادثاتي ليس سوى العدالة والمساواة عن طريق الوسائل السلمية.

- المحقق: ما هي الجرائم الأخرى التي قمتِ بارتكابها أو شاركتِ فيها؟

- مريم: هل تصفني بالمجرمة؟ إذًا فسوف أخبرك بالحقيقة... الجريمة الأولى التي ارتكبتها كانت سرقة لعب الأطفال من أجل أخواتي وأخي عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، وكنتُ آنذاك قاصرة ودون السن القانوني. ولا يمكنك أن تعاقبني بسبب ذلك الآن.

- المحقق: حسنًا، دعيني أعيد صياغة السؤال بطريقة أخرى.. ما هي أول حركة منظمة انضممتِ إليها أو شاركتِ بها من أجل المطالبة بحقوق النساء؟

- مريم: كانت المرة الأولى بالنسبة لي عندما كنتُ في الثامنة من عمري. حينما رأيت جارنا ينهال ضربًا على ابنته لأنها ركبت الدراجة، حيث قمتُ برميه بحجر ثم لذتُ بالفرار. وفي اليوم التالي، قام خمس بنات منا بركوب الدراجات في أرجاء الحي لنظهر أننا نستطيع أن نفعل تمامًا كما يفعل الأولاد.

- المحقق: إنكِ بحاجة للانضباط، أنتِ امرأة متمردة وحمقاء، إنكِ لا تريدين أن تكوني متعاونة معي.. هل ترغبين حقًا في أن تتعفني في السجن بقية حياتك؟

- مريم: انظر سيدي.. إننا نعيش هذه الحياة مَرَّة واحدة فقط، فإما أن أعيشها كاملة وبكرامة وأحصل فيها على حقوقي، وإما لا حاجة لي بها. افعل ما تمليه عليك وظيفتك وواجبك، فأنا لن أغيِّر مبادئي أبدًا، وسوف أظل دائمًا أدافع وأسعى لتحقيق هذه المبادئ بالطرق السلمية المتاحة.

- المحقق: هل قمتِ بكتابة كل العبارات التي وجدناها في كتاب التسجيلات الخاصة بكِ؟

- مريم: نعم سيدي.

وخلال إحدى المرَّات في الأسبوع الرابع من التحقيقات المتعددة، مثلت مريم أمام محكمة مدنية، حيث تمَّ تبرئتها مما نسب إليها من جرائم بسبب عدم نظامية أو الطريقة التي تمَّ القبض عليها وخلو سجلها من أي مخالفات قانونية.

واصلت مريم حياتها وهي تسير على نفس الدرب الذي رسمته لنفسها منذ البداية، ولكن بصورة معتدلة. وقد علمت لاحقًا أن الشرطة كانت على علم بشريكاتها في ذلك الأمر، غير أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا معهن أي شيء، حيث أن أزواجهن أثرياء وذوي نفوذ ولهم ثقلهم في المجتمع، ومن هنا لا يمكن المساس بهن.

وقد تعلمت مريم - من خلال الوقت العصيب الذي مرَّت به- أن الحياة لا تقدم أي نوع من العدالة لأولئك الذين قُدر لهم أن يكونوا فقراء، وتذكرت تلك العبارات التحذيرية التي كانت والدتها ترددها أمامها عندما سألتها مريم ذات مرة ما إذا كانت تستطيع أن تدرس بمدرسة خاصة، حيث كانت تقول:
"لا تحاولي النظر إلى الأعلى فقد تكسري رقبتك".

• • •

- **خلاصة القصة :**

بالعمل والكفاح فقط ينال الإنسان مبتغاة. كما أن للمرأة حقوقًا؛ تمامًا كالرجل؛ وإن لم تأخذها اليوم ستأخذها غدًا.. أو كما يُقال: "الحقوق تُؤخذ لا تطلب".

الحبُّ يأتيكَ من حيث لا تدري

لا يحتاج الإنسان من أجل تحقيق سعادته إلى

الاستمتاع بهذا أو ذاك.. وإنما يحتاج إلى الأمل والتغيير

برتراند راسل

تبدأ القصة في تاريخ الثالث والعشرين من ديسمبر ١٩٨٤. حينما استيقظ علاء بعد الظهيرة، كان يشعر بالجوع والعطش، كما كان مكتئبًا يشعر بالدوار بسبب عادة الإفراط في شرب الكحوليات. اتجه إلى الثلاجة، فتحها ليجد بداخلها بقايا من الحمص وبيضة مسلوقة ورغيفين من الخبز العربي المستدير صغير الحجم، ووجد أيضًا في رفِّ باب الثلاجة زجاجة كوكا كولا بحجم لتر مليئة بماء الصنبور.

اعتقد علاء أن هذا سيكون كافيًا لسد جوعه وعطشه، حيث قام بإعداد الطعام على صينية من البلاستيك، ثم أدار التلفاز، غير أنه لم يجد ما هو مثير وجذاب ليشاهده، حتى أن الأخبار كانت أكثر رتابة وملالً، ولهذا قرر أن يتصل ببعض الأصدقاء وأن يتبادل معهم الحديث أثناء تناوله للإفطار، إلا أن أحدًا لم يرد على مكالماته... فقرر أن يتصل بـ "جينو" صديقه الذي يعمل كنادل، والذي عادة ما يفتح النادي الذي يعمل به (نادي الأسد المحظوظ) في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر.

أجاب "جينو" قائلاً:

- مرحبًا، كيف حالك. ماذا هناك يا رجل؟

- لا شيء مهم. أردت فقط التحدث والاطمئنان عليك.

- أين أنت يا علاء؟

- في المنزل، أشعر بالملل والبرد، والمحفظة فارغة كالعادة في مثل هذا الوقت من الشهر.

- تعال يا صاح، فأنا أيضًا بمفردي!

- وكيف لي أن آتِ؟ أنا مفلس ولن أحصل على راتبي حتى الأسبوع القادم.

لقد كان يشعر حقًا بالاكتئاب وكان يراوده الإحساس وكأنه يود أن يقذف بنفسه من شرفة الطابق الثالث.

طمأنه "جينو" قائلاً:

- لا تقلق يا رجل، فأنت دائمًا تدفع ما تستدين.

سادت حالة من الصمت بينهما للحظة، وفجأة أخذ "جينو" ينادي بصوتٍ عالٍ:

- تعال يا صاح، أحتاج لرفقتك هنا معي. أول مشروبين تطلبهما على حساب النادي، كما إني سأقرضك عشرين دولارًا.. ما رأيك في هذا؟

وبعد مرور ساعة من الوقت، كان علاء يصف سيارته "البليموث" من طراز عام ١٩٧٣ ذات اللون الأخضر الباهت في المكان المخصص لزبائن النادي. وعندما دخل النادي، كان المكان خاليًا تمامًا، غير أن صوت أغنية المطربة "أوليفيا نيوتن جون" (دعنا نمارس الرياضة) يملأ أرجاء المكان.

نظر علاء من حوله ولكن لم يرَ "جينو". فبدأ يبحث عنه في أرجاء المكان، حتى وجده يتزلج على منصة الرقص. فصاح علاء وبابتسامة كبيرة على وجهه مازحًا:

- مرحبًا يا صاح، ماذا تفعل؟ ليس من المفترض أن تفعل ذلك. سوف أخبر "جيرى" مدير النادي بذلك.

- اذهب والتقط علبة من الشراب، اخدم نفسك بنفسك. إنني فقط أمارس مهاراتي في التزلج.

ثم توقف وأخذ نفسًا عميقًا، وطلب من علاء أن يعطيه منشفة. وبعدها استأذن ودخل مرحاض السيدات ليغتسل ويغير ملابسه.

هذا هو "جينو" المجنون الذي يعرفه علاء!.. عندما يكون مدير النادي غير موجود، يقوم دائمًا بتلك الأشياء السخيفة والمضحكة أحيانًا.

وبعدما خرج من المرحاض، نظر إلى علاء ضاحكًا:

- لابد أن تكون صديقتك قد هجرتك كالمعتاد. كيف يعقل أن تكون وحيدًا بلا صحبة في أيام الأعياد؟

- لا يا "جينو" لا أحد يهجرني أنت تعرف ذلك، أنسيت أنني طالب أجنبي، كل أسرتي في الوطن، في لبنان.

ثم تناول علاء رشفة كبيرة من كأس الشراب البارد وهو يكرِّر:

- أنت مجنون يا رجل... أنت مجنون.

وبعد بضع ساعات من الدردشة، قال "جينو" مقترحًا على علاء:

- لماذا لا تأتى لزيارتنا في منزل العائلة غدًا؟.. ستتجمع الأسرة للاحتفال وتناول عشاء عيد الميلاد. سيسعدنا أن تكون معنا.

- في الواقع يشرفني ذلك، ولكني لست متأكدًا ما إذا كنت متاحًا في مساء الغد.

قالها بصورة اعتذارية كما لو أنه لم يكن يود أن يلزم نفسه بالذهاب إلى هناك أو يحرجهم.

- هيا يا صاح.. سوف تستمتع بلقاء عائلتي، كما أن أختي المطلقة وأبناءها سيكونون هناك أيضًا... أنت ضيف الشرف.. سأتصل بأمي الآن وأخبرها بأنك سوف تنضم إلينا.

- حسنًا...حسنًا يا رجل، ماذا ينبغي على أن أرتدي؟ أعني ما هو الزيُّ المناسب في مثل هذه المناسبات؟

- لا شيء محدد، فقط زيٌّ عادى.

وكانت تلك الليلة، واحدة من تلك الليالي الجميلة التي لا تُنسى بالنسبة لعلاء، فلقد كان والدا "جينو" (جين وكاسيا) في غاية اللُّطف والرقة مع علاء، حيث تبادلت والدة "جينو" وأخته "صوفيا" الأدوار في إنشاد وغناء بعض الأغنيات الخاصة بعيد الميلاد، وتعلقت بعض من تلك الأناشيد والأغاني بذاكرة علاء لفترة طويلة، كأغنية "الأيام الاثنا عشر" والتي عادة ما تغني في ليلة عيد الميلاد.

كان الطعام لذيذًا وشهيًا، وكان مذاق لحم الديك الرومي رائعًا، غاية في الروعة؛ بالنسبة لطالب جامعي يتضور جوعًا.

وعندما أوشك علاء على المغادرة، اقتربت منه أخت "جينو" وقدَّمت له هدية مغلفة بشكل جميل، حيث قام بنزع غلاف الهدية في الحال، بينما كانوا جميعًا يبتسمون ويقهقهون وهم ينظرون إليه..

- "يا إلهي، إنه كتاب".

فلقد كان هذا هو كل ما يحتاج إليه ليساعده على قضاء الوقت والتخفيف من آلام الوحدة التي يعانى منها خلال العطلات.

بعد مرور عامين، تخرج علاء في الجامعة وأصبح يحمل بكالوريوس في علوم الحاسب، وتم تعيينه في وظيفة واعدة في إحدى شركات وادي السيلكون وسط كاليفورنيا.

كان عمله مرهقًا، لكنه تمكن من صعود السلم الوظيفي، وكانت له بعض العلاقات؛ وإن كانت غير جادة، ويرجع هذا بصورة رئيسة إلى عدد الساعات الطويلة التي كان يكرسها لعمله.

وذات يوم، بينما كان يقوم بالتسوق لشراء حاجياته، قابل صديقة قديمة كانت قد هجرته لتهرب مع حبيبها السابق الذي كان يدرس في المدرسة الثانوية معها؛ ولم يكن رآها لسنوات؛ وقد تعرفت عليه من صوته وهو يلاطف موظفة المحاسبة...

- هل هذا أنت يا علاء؟

نظر إليها لبضع لحظات، ثم فكَّر في الأمر... إنها هي! اللعنة... ولكنها ما زالت جميلة ورشيقة كما كانت دائمًا.

- نعم أنا علاء.

وسألها وهو يتظاهر أنه لم يتعرف عليها:

- من أنتِ؟

- أنا "تينا". أنا أيضًا لم أعرفك، تبدو أكبر سِنًّا من عمرك الحقيقي، غير أن صوتك ما زال كما هو لم يتغير.

واعتقد علاء أن ذلك شيء غير مستحب من جانبها، فهي ما زالت صريحة ومباشرة في كلامها كما كانت دائمًا.

تقدم بضع خطوات نحوها، عانقها بقوة وهمس في أذنيها:

- ماذا حدث لكِ؟ لقد اعتقدت أنكِ ذهبتِ ولن تعودي للأبد. ما الذي دفعك للعودة ثانية؟

- إنها قصة طويلة. ربما نستطيع في وقتٍ ما أن نلتقي لتناول القهوة معًا ونتحدث حول ذلك.

وبينما كان في طريقه للمنزل، فكَّر فيما قالته صديقته السابقة:

- ربما تكون محقة فيما قالته عن موضوع العمر، فأنا لا أحلق ذقني بشكل منتظم على مدار سنين، ولم أضحك أو أقوم بأداء التمارين الرياضية. كل ما أفعله هو العمل والتدخين وتناول الكحوليات.

وفيما هو محتار ومصدوم من الموقف، إلا أنه نسب صدمة اليقظة التي أحسَّ بها إلى ذكريات الماضي الجميلة.

وعندما وصل إلى المنزل، بدأ يحدق في المرآة لفترة طويلة، وكأنها المرة الأولى التي يرى فيها نفسه في هذه الحالة التي هو عليها.. فكَّر في الأمر، ونظر في المرآة المرة تلو الأخرى.. وقال:

- من يكون هذا بحق الجحيم؟ من ذلك الرجل السمين المنتفخ البطن؟ ما تلك الهالات الداكنة التي في أسفل عينيّ؟ من يكون ذلك الرجل الأصلع ذو اللحية الرمادية اللون والمتشابكة؟

وفى النهاية، لم يستطع أن ينكر تلك الحقيقة المفزعة: " نعم، ذلك الرجل الذي في المرآة هو علاء نفسه".

وبدأ ينظر لنفسه بنظرات مليئة بالتقزز والاشمئزاز. وعادت به ذكرياته إلى الماضي حيث تلك الأيام الخوالي التي قضاها مع صديقته السابقة "تينا"، وتذكر كم كان جسمه رياضيًا، وكان مرحًا ومتألقًا.

في صباح اليوم التالي، اتصل علاء بالشركة التي يعمل بها وطلب إجازة لمدة أسبوعين.. حيث قرَّر أن التغيير قد بدأ للتو. وأخذ يكرِّر وهو يجوب البيت ذهابًا وإيابًا: "لقد آن الأوان لأعيش حياتي متحررًا من قيود الماضي والبؤس والكحوليات".

وذات يوم، وبينما كان يقوم بإعادة ترتيب كتبه، وقع في يده كتاب قد أهداه له والدا "جينو" منذ عشرة أعوام، وكان عنوان الكتاب "كيف تصبح شابًا مرة أخرى". فاعتقد أن هذه مصادفة جميلة!.

استعان علاء ببعض العمال لكي يقوموا بتنظيف منزله المليء بالقمامة والأشياء القديمة المتكدسة، لم تكن كل هذه الفوضى بسبب وجود خلل قهري يعاني منه، وإنما فقط الكسل وانعدام الدافعية والإهمال.

لقد تغيرت نظرته للأمور الآن، وفكَّر أنه من الغباء قتل النفس والطموح بسبب امرأة هجرته.. كان عازمًا على تغيير واقعه وأن يصبح إنسانًا مختلفًا.. كان عازمًا على تحويل حياته مما هي عليه الآن إلى حياة جديدة، وبدون أن يطلب المساعدة من أي شخص؛ حيث أن عزة نفسه تمنعه من ذلك.

كانت خطوته التالية أن يقوم بزيارة إلى محل الحلاقة الذي يقع في المنطقة التي يسكن فيها، والذي لم يذهب إليه منذ سنوات.

وهناك، بينما كان ينتظر دوره، بدأ يقرأ في كتاب "كيف تصبح شابًا مرة أخرى"، ذلك الكتاب الذي أهدته له أسرة "جينو".

وبينما هو كذلك نظر إليه "جو" ذلك المصفف المرح أنيق الثياب، قائلاً:

- هل أنت حقًا علاء؟ لا أستطيع أن أصدق عيني. هيا يا رجل، فأنا لا أريد أن أضيع هذه الفرصة. أين أنت كل تلك السنين؟ تعال واجلس على الكرسي فسوف أقص شعرك في الحال، مع أنها فترة استراحتي.

وبينما كان علاء يجلس على كرسي الحلاقة، وضع الكتاب على الرفِّ الرخامي أمامه.. ألقى "جو" لمحة سريعة نحو عنوان الكتاب، وقال معلقًا:

- هذا ما يجب أن تفعله يا رجل. هذا كتاب رائع، لقد قرأته العام الماضي.

ثم استدار حيث وجه علاء، وهو يتفحص تلك اللحية في وجه علاء والتي لم يعتد عليها. ثم سأله:

- أين كنت طوال هذه السنين؟

- العمل ثم العمل ثم العمل. هذا كل ما أفعله.

- حسنًا، لكن السؤال الحقيقي هو: ما الذي تود أن تفعله اليوم؟

- افعل ما تعتقد أنه الأفضل لديك، يا "جو"، ولكن عندما أغادر من محلك، أريد أن أكون في أجمل صورة. تأكد من أن تحلق كل الشعر الذي في وجهي تمامًا، لحيتي وشاربي وشعر رأسي أيضًا.

ثم طلب "جو" بلطف من علاء أن يتقدم نحو حوض الغسيل.

وبينما كان "جو" يستخدم الشامبو لغسل الرأس، سأل علاء:

- هل بدأت توًا قرأءة هذا الكتاب؟

- يمكنك القول نعم ولا، حيث أنني قد قرأته من قبل منذ وقت طويل، غير أنني لا أكاد أذكر ما يتحدث عنه، ولهذا بدأت في قراءته مرة أخرى الليلة الماضية.

تردَّد "جو"، لعلمه أن علاء كان ما يزال في بداية رحلته التصحيحية؛ أو هذا ما اعتقده، واعتقد أيضًا أن علاء ربما قد يحتاج لبعض المساعدة.. ثم قال:

- هذا الكتاب يقدم لنا عشر خطوات لكي نحافظ على شبابنا وصحتنا باطنيًا وظاهريًا، إنه ينصح القارئ بأنه لكي يصبح شابًا مرة أخرى، فإن عليه: أن يضحك.. ويتصرف بجنون أحيانًا.. وأن يكون تلقائيًا.. ويمارس التمارين.. ويسترخى كلما أمكنه ذلك.. وأن يقع في الحب.. وأن تكون تخيلاته ايجابية.. وأن ينام جيدًا.. وأن يتأمل ويملأ قلبه بالإيمان ويتناول الأطعمة الصحية.

- هذه تسع، فأين النصيحة العاشرة؟

- معذرة، النصيحة العاشرة والأكثر أهمية هي أن تكون كما تحب أن تكون، وهذا بأن تدقق بعناية في كل قرار تتخذه في حياتك وأن تسأل نفسك: هل هذا حقًا ما أريد أن أفعله؟ هل هذا مناسب وملائم لي؟ وأن تبدأ في فهم وإدراك النية والمقصد

وراء كل إجراء تتخذه أو عمل تعمله، وألا تعمل عملاً إلا وأنت تعشقه ويكون مناسبًا وملائمًا لك لا لغيرك، والتأكد من أن أفعالك تتوافق مع نواياك الحقيقية وأنها منصبة على هدف تحقيق أحلامك... وعندها فقط سوف تبدأ في الإحساس بالتحسن والرضا عن نفسك. وعندما تشعر بالتحسن والرضا عن نفسك، فسرعان ما سيمكنك أن تستجمع الشجاعة اللازمة لتلك اللحظات التي تحتاج فيها أن تقول "لا" لأي شيء أو أي شخص قد يقف عائقًا أمام تحقيقك لذاتك.

كان هذا هو أطول حديث سمعه علاء من "جو" فيما مضى من كل السنين التي عرفه فيها... ولهذا أعاره الكثير من الاهتمام.

عندما انتهى "جو" من كلامه، مدَّ يده نحو منشفة بيضاء ناعمة وجفَّف شعر علاء.

وبعد أن نهض من مكانه واتجه نحو كرسي الحلاقة، وبينما هو جالس على الكرسي، قال علاء بابتسامة عريضة على وجنتيه:

- لم أكن أعرف أنك بهذا القدر من الذكاء والفكر العميق حتى هذه اللحظة يا "جو"، أنت لست فقط مجرد قارئ، إنك أيضًا فيلسوف!.

- أنا أكتب الشعر وبعض القصص القصيرة أيضًا... ثم أكمل:

- ها نحن قد انتهينا يا علاء، وها أنت تبدو الآن وسيما وأصغر من سنك بعشر سنوات.

ثم مدَّ يده ليعطى علاء مرآة دائرية صغيرة.

عادت وجنتا علاء؛ اللتان كان يبدو عليهما الشحوب والتجاعيد؛ للنضارة والحياة من جديد، حيث يمكن لكل من يشاهده ملاحظة الإشراقة والبريق في عينيه بعد أسبوع واحد فقط من زيارته للصالون، وأصبح يداوم على التمارين الرياضية بصورة منتظمة، بالإضافة إلى تناول الأطعمة الصحية الجيدة. وكانت هناك زيارات عارضة إلى الحانة لتناول القليل من الشراب مع الأصدقاء، غير أن قصد علاء من القيام بذلك قد تغيَّر هذه المرة، فلم يكن يسعى وراء الشراب نفسه؛ بل كان المشروب أمرًا ثانويًا، وكل ما كان يريد هو أن يرى أصدقاءه القدامى ويتحدث إليهم لكي يعرف ما يجري في حياتهم، وربما ليقدم لهم النصح والمشورة.

كما تغيَّرت الأمور في العمل أيضًا، حيث أن "أبها" تلك السيدة الهندية متوسطة العمر،الذكية نحيفة القوام، والتي كانت دائمًا تتجنبه ولا تكف عن اغتيابه، بدأت توجه له نظرات لطيفة ولمحات سريعة مختلسة.

لقد كان علاء فيما مضى منطويًا داخل عالمه الخاص حيث إنه لم يفكر أبدًا فيها أو في غيرها، وكأنها لم تكن موجودة على الإطلاق. ومما أثار دهشته، أنها اقتربت منه ذات يوم بينما كان يقوم بإضافة السكر والكريمة إلى فنجان قهوته، ثم قالت له:

- مرحبًا، سوف أذهب لتناول الغذاء. هل تود أن ترافقني؟

- لا شكرًا، لقد تناولت توًا ساندويتش أفوكادو بالجبن.

قال ذلك كرَّدِ فعلٍ تلقائي بدون تفكير.

وبينما كان عائدًا إلى حيث يوجد مكتبه، فكَّر في ذلك الموقف وأدرك أن هذا الموقف يمثل تغيرًا وتحولاً كبيرًا عما كان عليه الوضع في السابق، حيث كانت تتجنبه كما لو أنها كانت تخشى أن يعضها أو يصرخ في وجهها، ربما لان شكله كان متوحشًا لا ترى منه إلا عينيه الحمراوين.

وبعد بضعة أيام، بينما كان خارجًا من عمله، لمح "أبها" وهي تقف بجوار سيارتها وكانت تلوِّح. فاقترب منها وسألها:

- هل من شيء يمكنني أن أساعدك فيه؟

- إطار سيارتي مثقوب، وليس معي إطار احتياطي. وحتى لو كان معي، فإنني لا أستطيع أن أقوم بتغييره.

- حسنًا، إذا لم يكن لديكِ إطار احتياطي، فسيكون عليك أن تقطري سيارتك. ولكن اتركي سيارتك هنا، وسوف أقوم بتوصيلك إلى المنزل، ويمكنك الاتصال بسيارة القطر من هناك لكي تقوم بقطر سيارتك حيث ترغبين.

- لا...لا، أنت لست ملزمًا بالقيام بذلك. يمكنني أن أتصل بتاكسي ليأخذني إلى المنزل.

- هيا تفضلي. دعيني أوصلك إلى المنزل.

في طريقهما إلى منزلها، وجَّه إليها عدة نظرات خاطفة وهي تجلس في المقعد الخلفي للسيارة لوجود الكثير من الخرائط، والأوراق والفواتير على المقعد الأمامي.

الغريب أن علاء لم يكن يعرها أبدًا أي اهتمام فيما مضى، غير أنه الآن وفي صورته ومظهره الجديد أصبح أكثر ثقة بنفسه، وأدرك للوهلة الأولى أنها جميلة ومهذبة ويسعده أن يحدثها ويكون في رفقتها.

أراد علاء أن يكسر حاجز الصمت القائم، فبادر قائلاً:

- أعتذر عما حدث أمس. حيث إنني كنت قد تناولتُ غدائي بالفعل في مكتبي، وكان لديَّ الكثير من الواجبات والمهام التي يجب أن أنهيها في أحد المشروعات العاجلة.
- أعلم أن لديك مسكوليات ضخمة وواجبات كثيرة في العمل. أنت مدير المشاريع، ومسئولياتك ضخمة.

ترددت "أبها" قبل أن تكمل حديثها:

- في الواقع، كانت دوافعي عندما عرضتُ عليك تناول الغداء ذات شقين. في الحقيقة كنت أود أن أخبرك بأن مظهرك وشكلك الجديد والطريقة التي تختار بها ملابسك جيدة وأنيقة وعصرية، وهذا يمثل تغيرًا جيدًا بالنسبة لك.. كما أنني بصراحة كنتُ أودُّ أن أتحدث إليك. لقد عملت معك منذ فترة طويلة، غير أننا لا نعرف أي شيء عن بعضنا البعض.

لم يتفوه علاء بأي كلمة بل ظلَّ صامتًا.
وعندما وصلوا إلى حيث تقيم "أبها" في مبنى مكون من ثلاث طوابق، نظرت إليه وسألته:
- هل تودُّ زيارة شقتي؟
- أشكرك، ولكني مضطرٌ للذهاب بالفعل.

قال ذلك كرد فعل تلقائي.. ثم أضاف أيضًا معتذرًا:
- أودُّ أن أشاهد برنامجي الكوميدي المفضل الذي يعرض في السادسة.
- رجاءً تفضل. لقد أرسلت لي والدتي نوعًا جيدًا من الشاي الهندي الأصلي. يمكننا أن نتناول الشاي ونشاهد البرنامج سويًا إذا رغبت.

فكَّر علاء في الأمر بعناية هذه المرة، فلم يكن يود أن يخذلها ويرفض دعوتها مثلما فعل مع دعوة تناول الغداء. وفجأة أدرك أنه معجب بهذه المرأة ذات الأصول الهندية وأنه سوف يستمتع بتناول الشاي معها.. فرَّد عليها محاولاً التمسك بتحفظه القديم:
- حسنًا، أشكرك. سوف أتناول معكِ الشاي، لكن لن أمكث طويلاً.

غير أن تلك البرهة القصيرة من الوقت تحولت إلى ساعات من الحب والانسجام، وتحول الشاي إلى نبيذ، ونسيا البرنامج الكوميدي، وانصهر جسداهما معًا، وتوحدا كجسدٍ واحد، وبدا وكأن روحيهما تعرف كل منهما الأخرى منذ زمنٍ طويل.

وبينما هما مستلقيان يستمعان للموسيقى الهندية الرومانسية؛ قال علاء:

- أنتِ لطيفة وحنونة. أعتقد أنني كنت أعمى طوال كل هذه السنين التي عملنا فيها معًا.

- لا، لا. لم تكن أعمى. لقد كنتَ رجل كهف قبيح المنظر، يكسو وجهه الشعر ورائحته مقززة.. حتى الأعمى لم يكن ليطيق أو يتحمل النظر إليك.

ثم أكملت وهي تضحك:

- دعني أخبرك الحقيقة يا علاء، إن إطار سيارتي سليم.. أنا من افرغ الهواء من داخله ليتسنى لي الحديث معك.

- آه يا شقية، لقد توقعت ذكاءك، ولكن لم أتوقعك بهذا الدهاء.

توطدت علاقتهما فصارا أكثر قربًا، كما لو أن كلاً منهما خُلق للأخر. والآن أصبح الحب الذي لم يكن قد مسَّ قلب أيٍّ منهما لفترة طويلة؛ هو الرباط الوثيق الذي يجمع بينهما.

ذات يوم، أتت "أبها" إلى مكتبه أثناء وقت تناول الغداء، وكانت تحمل معها هدية صغيرة عبارة عن قنينة من العطر الرجالي، ثم قالت له في عجالة:

- أود أن أتحدث إليك بكلام مهم، ولكن ليس هنا. أود أن أزورك في منزلك الليلة.

ثم أعطته زجاجة العطر، وأهدته قبلة خاطفه وهي تلوح بيدها الصغيرة الناعمة وهي منصرفة على عجل إلى مكتبها.

كان علاء في حالة من البهجة الممزوجة بالفضول بقية عصر ذلك اليوم، منتظرًا تلك اللحظة التي سيكون فيها مع "أبها" بعد انتهاء العمل. وعندما وضع سماعة التليفون بعد أخر مكالمة في نهاية ذلك اليوم، أسرع علاء إلى المتجر واشترى زجاجة من العصير، وباقة من الزهور وبعض المستلزمات الأخرى.

عندما وصل إلى المنزل، خلع ثيابه ونظَّف السجادة الموجودة في غرفة الجلوس، ثم قام بترتيب السرير، والتقط ثيابه من أرضية الغرفة، ثم اتجه إلى الطابق السفلى لكي يقوم بغسل الأطباق؛ حيث لم يكن لديه وقت للقيام بغسلها صباح ذلك اليوم.

وعندما انتهى من هذه الأعمال، صعد السلم متجهًا إلى الطابق العلوي وهو يكاد يقفز درجات السلم من السعادة والبهجة التي كان يحس بها، متجهًا إلى الحمام لكي يأخذ دُشًّا مُنعشًا. وكان صوت قطرات الماء وهي تسقط على أرضية السيراميك بمثابة الأوركسترا وهو يغني ويصفر بمرح، بدا له كل ذلك كمهارة جديدة صادرة من قلبه وليس من عقله .

سمع علاء جرس الباب يدق، أسرع وفتحه قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً، تفضلي بالدخول. رجاءً خذي راحتك، البيت بيتك.

- منزلك جميل ومنظم. أنت منظم للغاية؛ بالنسبة لرجل أعزب.

- نعم هذا أنا كُلّي ترتيبٌ وحنان.

بعد تناول العشاء، وبينما كانا يقومان بغسل الأواني، استمال برأسه نحوها ليسرق قبلة سريعة، غير أنها رفعت يدها للأعلى قائلة:

- ليس الآن.. أودُّ أن أخبرك بشيء مهم أولاً.

- مهما يكن ما تريدين إخباري به، تفضلي وقوليه لي، يا حُبّي وراحة قلبي.

- هل قلت "حبي"؟ وهل تعنيها من قلبك.

- نعم أقولها من كل قلبي وأحاسيسي وجوارحي.

- إذن اسمعني جيدًا... أنا حامل. لقد حدث هذا الشيء أثناء تلك الليلة الأولى التي تبادلنا فيها الحب.

قالت ذلك بثبات وثقة وعيناها مفتوحتان ناظرة في اتجاه عينيه. ثم جففت يديها، واتجهت نحو مائدة الطعام وجلست منكبة الرأس ويداها ترتجفان من الهلع والشعور بالذنب. وأخذت تردد: "إنه الشيطان يا علاء".

- هل أنتِ متأكدة من ذلك؟

- نعم لقد كان اختبار الحمل إيجابيًا.

لم يظهر علاء أي تردد في كلماته، بل قال بحزم ممزوج ببهجة:

- هذا شيء عظيم! لماذا تشعرين بالقلق؟ يا الله سيكون لي ولد، والله كنت أعتقد إني عقيم بسبب مرض الهربيز الذي تعرضت له قبل سنوات وأخذ مني ستة أشهر للشفاء منه.

- الحمد لله، ولكن أنت أبوك مسلم وأمك مسيحية من أصول شرقية كما هو حالي. ألا تدرك طبيعة الأمر والعواقب. إذا علمت أسرتي بذلك فأنهم سيقتلونني، حتمًا سيقتلونني. أنا خائفة يا علاء فكيف أكون حاملاً بدون زواج؟ إنه حمل من سفاح، ألا تفهم يجب أن نتخلص من هذا الحمل، خذني إلى أحد الأطباء أصحابك، أو نتزوج بالسر.

انحنى علاء سريعًا أمامها، وقال متحدثًا بكل جدية واضعًا يده على كتفها:

- ليكن ما تريدين، ولكن ليس بالسر وإنما بالعلن، وأمام الله والناس. إنه قدرنا، ولا راد لقدر الله.

كان يقولها والابتسامة ترتسم على وجهه؛ وذلك غير معتاد بأمور كهذه، ثم تابع حديثه قائلاً:

- هل تقبليني زوجًا لكِ، عزيزتي أبها؟

شعرت "أبها" بالدهشة من ذلك، غير أنها كانت مسرورة في نفس الوقت. ثم أعقبت قائلة:

- هل أنت متأكد أنك ترغب في الزواج مني، علمًا أني مطلقة وحامل منك بالحرام؟

- نعم بالطبع أنا متأكد! وأين لي أن أجد زوجة طيبة ومحبة وجميلة مثلك؟ رجاءً اقبليني زوجًا لكِ.

وبينما كان جاثيًا على ركبتيه، نظرت إليه وذرفت من بين عينيها المغلقتين بعض الدموع طالبة منه أن ينهض.. ثم عانقته وهي تقول:

- نعم أقبل.

بعد عدة أيام تفاجأ عندما اتصلت به صديقته السابقة (تينا)، لكي تسأله ما إذا كان يستطيع أن يقابلها في أحد المنتزهات العامة المجاورة. حيث حدَّدا الموعد والتقيا، وتحدثا عن علاقتهما الماضية وحياتهما الجامعية.

وطوال تلك المحادثة التي جرت بينهما، كان هناك سؤال يدور في رأسه منذ أمد طويل. ولكن في النهاية استطاع أن يستجمع قواه ويطرح عليها السؤال الذي كان يحيره طويلاً:

- لماذا قررتِ هجري بذلك الأسلوب الغبي؟

- دعني أصدقك القول، إنني ما زلت أندم وأتحسر على ذلك اليوم. فقد كنت صغيرة وساذجة.

ثم توقفتْ للحظة ومسحت دموعها قبل أن تواصل كلامها:

- لقد كان (جاك) أحمقًا، وأنا أيضًا كنت حمقاء وذهبت للعيش معه. استغل سذاجتي وكان يعاملني معاملة سيئة للغاية، وكان

يعيرني بك طوال الوقت. والشيء الوحيد الذي جعلني أقبل الاستمرار في العيش معه هو ابني.

وهو يشعر بقليل من الدهشة بأنه لم يحس بشفقة أو شعور حقيقي نحوها؛ بادرها بالسؤال:

- وأين هو الآن وأين ابنك؟

- إنه في السجن لتجارته بالمخدرات، وابني يدرس في مدرسة داخلية على حساب أبي. وقد قمت برفع دعوى طلاق. أرجوك يا علاء أن تصدقني: أنت لم تغب عن ذاكرتي طوال هذه السنين، وكل أغنية أستمع إليها تذكرني بك وحدك... أرجوك سامحني عما بدر مني؟

- انظري يا تينا، لقد جرحتِ مشاعري وقتلتِ فؤادي وأهنتِ كرامتي. وقد استغرق الأمر سنوات لكي أتخلص من ذكراكِ وأداوى جروحي، وحمدًا لله أنني تمكنتُ من ذلك في النهاية. وبالفعل ليس بداخلي أي ضغينة تجاهك الآن وأتمنى لك دائمًا كل السعادة.

ثم صمت برهة ونظر إلى السماء وعيونه غارقة بالدموع. وعندها ساد الصمت لبعض الوقت. ثم واصل حديثه:

- لقد كنتِ حبي الأول. ولكن شكرًا لقد تعلمتُ منه ما لم أكن لأستطيع تعلمه ولو ذهبتُ إلا أكبر الجامعات.. تعلمت أن لا أثق في أي مخلوق وإن بدا كالملاك.. وهذا أنتن نساء الغرب،

أنا لا ألوم رجالكم عندما يهجرونكم ويتزوجون من النساء الشرقيات.. هل تعلمين لماذا؟ لأنهن بكل بساطة مخلصات وصادقات.

- هل من الممكن أن نصبح أصدقاء مرة أخرى، وأن نتلاقى بين الحين والأخر؟ وأن نفتح صفحة جديدة، وعسى الأيام أن تنسينا الماضي بأفراحه وأتراحه.

- في الحقيقة لا أعرف كيف أخبرك بهذا الأمر ومن أين أبدأ، ولكني سوف أتزوج الشهر القادم، وأعتقد أنه من الأفضل أن ننهي علاقتنا الآن وهنا بالتحديد. إنني حقًا في غاية الأسف أنكِ اضطررتِ للعيش مع ذلك الرجل وللألم الذي سببه لك.

وبعد اللقاء الذي لم يدم طويلاً، صافح كل منهما الأخر، وسلك كل منهما اتجاهًا مختلفًا. ولكن هذا اللقاء أراح علاء كثيرًا لأنه تمكن من قول ما كان يريد قوله منذ سنين.

قرَّر علاء و"أبها" الذهاب إلى الهند مسقط رأسها، حيث رحَّبت أسرتها بعلاء ترحيبًا لم يتوقعه ولا بالأحلام، وتمَّ الزفاف في نفس أسبوع الوصول. حيث أقيم حفل الزفاف في إحدى فنادق (قوا) الساحلية، وعادوا إلى وادي السليكون كأسرة يغمرها الحب. وخلال بضع سنوات قليلة أنجبا ثلاثة من البنات كدليل على عمق الحب الذي جمع بينهما.

- **خلاصة القصة :**

لا تيأس وتتحسر على شيء قد مضى، بل جدِّد حياتك دومًا. وإذا ساقك القدر إلى الحب، فاقبض عليه ولا تدعه يذهب من بين يديك. بل قدِّم الحب على طبق من فضة لكل أحبائك وكأنهم سيغادرون بعد ساعة، بدون أن تتوقع جزاء فعلك منهم.

احزري يا أمي! لقد وجدتُ الحب

ليس من واجبك أن تبحث عن الحب،

ولكن عليك أن تزيل الحواجز التي بداخل قلبك،

ليجدك الحب

جلال الدين الرومي

- يا سلام، أشعرُ بالراحة منذ أن أتيتُ إلى هذا المكان الرائع.

قالتها تلك السيدة والسعادة واضحة على محياها وهي تفرك يديها من شدة البرد المعتاد في شهر فبراير.

كانت تلك السيدة متوسطة الجمال، قصيرة نوعًا ما، تحسبها للوهلة الأولى في العشرينات من عمرها، بينما هي في الواقع قد تجاوزت الأربعين.

أجابها الرجل ذو اللحية البيضاء الذي كان يقف بجوارها:

- هل هذه هي المرة الأولي التي تأتين فيها إلى هنا؟

- نعم، بعض الأصدقاء نصحوني بالمجيء إلى هذا المركز الإسلامي ذي التوجه الصوفي... قالتها بابتسامة.

أخرج الرجل القفاز من يده اليمنى ومدَّها مُصافحًا:

- اسمي "جون كريم سيتوارد"، ناديني كريم. هذه هي المرة الخامسة عشر التي آتي فيها إلى هنا، أي منذ أن اعتنقت الإسلام.

- لابد أنك تعيش بالقرب من هذا المكان.

قالتها ثم صمتت قليلاً وكأنها نسيت شيئًا ما، ثم استدركت وقالت وهي تضحك:

- آسفة سيدي، لم أعرفك على نفسي.. اسمي "كارول سميث" من شمال فرجينيا.

- أنا لا أعيش هنا، أنا من الجنوب الغربي. ولكن اعذريني على السؤال، هل أنتِ مسلمة؟

- لا لستُ مسلمة، ولا أعرف ما أنا عليه. أنا هنا بالواقع لثلاثة أسباب: أولاً لأرتاح، وثانيًا للاستكشاف، وطبعًا التعرف على الإسلام الصوفي والناس الذين يؤمنون به.

أخذ كريم رشفة من قهوته وطلب منها الدخول إلى بهو المطعم حيث إنه لاحظ يديها وهي ترتجف من شدة البرد.

جلس الاثنان في بهو المركز وأخذا يتبادلان أطراف الحديث ويحتسيان المزيد من القهوة. وبينما هما كذلك قال لها كريم:

- هذا الوقت من السنة ليس جيدًا. يجب عليكِ المجيء أيام الربيع، الربيع هنا لا يوصف بكلمات حيث تكون الحرارة معتدلة والنشاطات كثيرة.

- دعني أصارحكبشيض، لقد استمتعتُ اليوم بالمحاضرة التي ألقتها السيدة الدكتورة شريفة، وما أعجبني أكثر هو ساعة الصلاة والتأمل التي أعقبت الدرس. أحسستُ بسعادة لا توصف، وراحة لا تشترى. لقد مضى وقت طويل حيث إني لا أتذكر أخر مرة أحسستُ بهذا الإحساس الجميل.

ثم أخذت تنظر إلى الملصقات على الحائط وقالت:

- ما هي الصوفية؟ وكيف تختلف عن الإسلام الذي يتكلمون عنه في الإعلام ويصفونه بأبشع الصفات.. أقصد هنا في بلدنا؛ في أمريكا.

- هذا سؤال كبير يا أختي، ولكني متأكد أنكِ ستتعلمين الكثير خلال هذه الأيام الخمسة التي ستقضينها معنا هنا في المركز.

ثم أخذ يتفكر بعمق وعيناه مغلقتان، وأكمل يقول:

- قد أفيدك قليلاً بما أعرف... كلمة "صوفي" تأتي من الكلمة العربية "صوف" والتي تعني الملبس الخشن المصنوع من الصوف. وقيل أيضًا إنها أتت من كلمة "صفاء" وهي كلمة عربية أيضًا وتعني الطهارة. الصوفية هي فرع من فروع الإسلام ولها فلسفتها الخاصة، ولها عمقها التاريخي، وهناك الكثير من المتصوفة ممن ليسوا بمسلمين، قد تجدين التصوف في كل المِلل. وهناك أيضًا بعض المسلمين المترددين في قبول الصوفية كفرع من فروع الإسلام، وذلك لأن الصوفيين يؤمنون بالخلاص كما في الكثير من الأديان، ويؤمنون أيضًا بالأولياء؛ أولياء الله؛ وأنهم ذوو معجزات كالأنبياء وهبها الله لهم.

- صدقني إني لم أفهم ما قلته لي للتو، يبدو للوهلة الأولى أنه فكرٌ عميقٌ كعمق وقِدم الإنسانية نفسها،وسيتطلب الأمر الكثير مني لأتعلم. ولكني سأستمر معكم لأني أحب التحدي.

- لا تقلقي يا "كارول" ولا تستعجلي، أو كما يقول أهل مكة: "أكل العنب حبة، حبة". ولعلمك التعاليم الصوفية تركز على توحيد ومحبة الله؛ محبة غير مشروطة؛ كما هو يحبنا، دون

أن نفكر بعطاياه سبحانه أو عقابه. الفكر الصوفي يؤمن بأن الأنبياء والأولياء من كل الأديان مصدرهم وإلهامهم واحد وهو الله سبحانه وتعالى. فلا يجوز نكرانهم أو التشكيك فيهم، وأن الله واحد وأنه سبحانه لا يحكمه زمان أو مكان. وكل ما في الكون ملكه من خير وشر.

- أنت على حق. يجب أن أتروى وأنصت أكثر.

وبينما هما يتناقشان، قاطعتهما فريدة:

- السلام عليكم. سوف نقدم طعام الغداء بعد خمس دقائق.

ثم نظرت إلى "كارول" وقالت:

- هذا أنتِ "كارول"! لقد سمعتُ عنكِ.. لا تقلقي، سمعتُ عنكِ كل خير. أنا اسمي فريدة كبيرة الطُهاة وقد أعددتُ لكِ وجبة خالية من البهارات حسب طلبك في استمارة التسجيل.

- شكرًا يا فريدة، سررتُ بمعرفتك.

وقف كريم وهو يتحسس على بطنه قائلاً:

- هيا إلى البوفيه يا "كارول"، أنا أتضور جوعًا، إنها ساعتي البيولوجية.

- وأنا أيضًا.

تناول الجميع طعام الغذاء، ثم خلدوا للراحة في غرفهم الخاصة حتى درس ما بعد الظهيرة.

بدأتْ حلقة ما بعد الظهيرة بالذكر وقراءة الأوراد الصوفية والدروس الدينية.

وفي المساء تجمع الكل حول النار المشتعلة وهم يتناولون المشروبات الساخنة ويشوون حلاوة "الماش ميلوه". وأخذ الجميع ينشدون الأناشيد الدينية وترديد اسم الله مئات المرات. وكان كريم وبعض الحضور يضربون على الدفوف.

في اليوم الثاني عند الغداء ألحَّ كل من كريم ولطيفه ـ المنسقة العامة ـ على "كارول" بأن تشاركهما الطاولة.

وعندما أخذت مكانها نظرت إلى كريم وقالت له بإطراء:

ـ أنت موسيقي محترف، وصوتك أيضًا جميل.. لقد رأيتُ كيف كنتَ تضرب على الدف.

قالت لطيفة وهي تبتسم:

ـ نعم، لقد كان موسيقيًا مشهورًا وله الكثير من المعجبين. ولكن الله هداه وهو اليوم واحدٌ منا. وعسى الله أن يتوب علينا وعلى عباده المؤمنين.

ـ نعم هذا كان في السابق، أيام الديناصورات.

ثم نظر إلى "كارول" وقال بإطراء:

ـ تبدين مرتاحة ومشرقة اليوم.

ـ شكرًا لكم. أنتم أناسٌ طيبون.

ثم سألتْ بصوتٍ عذبٍ، خافتٍ ذي حشرجة، وتبدو فيه السكينة:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أقصد إلى مركز السلام والمحبة.
- بالواقع بعض الأصدقاء من الأطباء، الذين التقيت بهم عندما كنت أعاني من ظروف صعبة.
- هيا أكملي، من فضلك أكملي، فأنا مشتاقة لسماع ما ستقولينه. ولا تخافي كلٌ منا عنده قصة يحكيها، دعيها تخرج من صدرك، أو كما يقولون أريحي واستريحي.
- حسنًا، سأرويها باختصار... ذات ليلة تأخرتُ في العمل لإنهاء بعض المعاملات المهمة بطلب من رئيسي المباشر.. خرجتُ من المكتب الساعة التاسعة مساءً لشراء بعض الأكلات السريعة من المطعم القريب من مقر عملي، وفي الطريق قابلني مجموعة من الشباب وحاولوا سرقة حقيبة يدي.. قاومتُ وضممت الحقيبة إلى صدري.

ثم تنهدتْ، وأخذتْ نفسًا عميقًا وهي تنظر إلى سقف المطعم، لأن تلك الذكريات تسبب لها الكآبة وعدم الأمان.

- أكملي يا أخت "كارول". أكملي يا عزيزتي" ...

قالها كريم بكل عطف.

- آسفة. وبعدها فقدتُ الوعي ولم أستفق إلا وأنا في المستشفى. من الواضح أن أحدهم ضربني بقضيب كرة القاعدة الخشبي. حيث اضطر الأطباء لعمل عشرين غرزه برأسي. وعندما استفقتُ من التخدير؛ وجدتُ رجلاً وامرأة بالقرب مني. سألاني

إذا كنت بخير وقالوا إنهم كانا خارجين من المطعم ووجداني مغطاة بالدماء وفاقدة للوعي على قارعة الطريق. اتصلا بالإسعاف وأصرا على البقاء بقربي ليطمئنا عليَّ. والغريب أنهما كانا طبيبين في نفس المستشفى. ومن ثم، وبعد خروجي توطدت صداقتي معهما بعمق. وعلى فكرة، كان الاثنان من مصر، وقد هاجرا إلى أمريكا منذ ثلاث سنوات.

أخذتْ رشفة من الماء الفاتر وسكبت بعضًا منها على كفها الأيسر ومسحت وجهها، ثم واصلت الحديث:

- في أحد الأيام كنت أتناول الطعام معهما وصارحتهما قائلة: أنتما أهلي وعائلتي وأحبتي، أنتما من أنقذ حياتي وأدين لكما بها. وأخبرتهم بأني أعاني من الصداع وقلة النوم والخوف كلما خرجت من المنزل. فنصحوني أن آخذ إجازة من عملي ولو لوقت قصير، وقاما بالترتيبات اللازمة لأكون معكم.

كان كريم ولطيفة ينصتان بشغف وتواضع وقد بدا عليهما التأثر. وأخذت لطيفة تمسح الدموع التي كانت تنهمر على خديها الورديين. وبعد أن أنهت قصتها، قام كل من لطيفة وكريم وعانقاها بحرارة. ثم طمأنها كريم قائلاً:

- لا تخافي ولا تحزني. ستكونين بإذن الله بخير. فقط ثقي بالله فهو الشافي المعافى. كلٌّ منا يعاني، ولكن لا يجب الاستسلام، وعلى فكرة، درس الليلة سيكون مفتوحًا وعلى كل واحد من

الحضور أن يحكي قصته. فقط اصبري لتسمعي ما سوف أحكي، لأنكِ إذا سمعتِ مصائب غيرك تهون عليك مصيبتك.

في درس المساء،وعندما جلس الجميع على الأرضية المفروشة بالسجاد.. قالت السيدة الدكتورة شريفة:

- من يريد أن يبدأ أولاً؟

وضعت لطيفة يدها على كتف "كارول" وقالت لها:

- ابدأي أنتِ أولاً. لأن قصتك ذات شجون.

حكت "كارول" قصتها مرة أخرى. ولكن هذه المرة أمام الجميع. ثم أخذت السيدة شريفة بإبداء ملاحظاتها:

- عزيزتي "كارول"، أعتقد أن الله اختاركِ لتكوني معنا. هذا هو المكان الصحيح لتجدي نفسك. البعض منا عندما يمرون بمصيبة يجزعون ويكرهون الحياة، مع العلم أن كل الأشياء الحلوة والمُرة التي نمرُّ بها في حياتنا ما هي إلا أدوات لتصقلنا وتنقينا وتوصلنا لبارئنا. كل التجارب التي نمر بها أيًّا كانت؛ تقوينا إذا صبرنا واحتسبنا. وأيضًا كل إساءة أيًّا كانت معنوية أو جسدية؛ تجعلنا نفكر مرتين قبل أن نتبع رغباتنا. أنا هنا أدعوكِ يا أخت "كارول" أن تسامحي نفسك أولاً، وتسامحي من أخطأ بحقك ثانيًا، وأن تمحي ما حدث لكِ من ذاكرتك، وأن تفتحي وتطهري بيت الله الذي في صدرك؛ ألا وهو قلبك؛ وتملأيه بمحبته سبحانه. وعندها فقط ستدخل

السعادة إلى حياتك. وأنا متأكدة بإذن الله، أن حياتك المستقبلية ستكون مشرقة. صدقيني إني أراها الآن في عينيكِ ونبرات صوتك.

وبعدها نظرت ناحية كريم قائلة:

- هل تريد المشاركة؟

- بالطبع سيدتي، أنا متأكد أن الكثير منكم قد سمعها مني سابقًا. لذلك سأختصرها لكم... يا إخوان ويا أخوات، أنا كنت أحد ضحايا العنف الجنسي من أحد مدرسي الموسيقى والذي كنت أحبه وأقدره وكان هو أستاذي المفضل.

توقف قليلاً ثم قال معتذرًا:

- أرجو أن تسمحوا لي، لأني لن أخوض بالتفاصيل المملة والجارحة في نفس الوقت، ولكن يمكنني القول إني كرهته حتى النخاع. كل ليلة كنت أفكر بقتله، وكنت أصلي ليأخذه ربي أخذ عزيز مقتدر. كرهت المدرسة بسببه... ولله الحمد والمنة أخذ جزاءه بحادث سير، وأُعيق إعاقة كاملة.

ثم توقف مرة أخرى وأخذ يتنهد وهو ينظر إلى الحضور،وأكمل:

- يا إخوان ويا أخوات، أنا لا أريد التشفي به الآن، ولكن هذا كان شعوري نحوه وما زال. الإحباط وروح الانتقام اتبعاني حتى وأنا في الجامعة، بدأت أتناول المخدرات والمشروبات الكحولية، وكانت الموسيقي هوسي الأول حتى أصبحتُ

مشهورًا. وفي السنة الرابعة سكن معي أحد الإخوان من السنغال، اسمه "جمال"، وكان أحد لاعبي السلة المشهورين في بلده وفي الجامعة أيضًا التي كنا ندرس فيها. كنت أراه يغتسل ويصلي كل صباح وجبهته على الأرض. كان جمال خفيف الظل، مرح وصاحب نكتة، لم يكن يشرب أو يستخدم المخدرات. وفي يوم من الأيام دعاني إلى المركز الإسلامي، وكان ذلك اليوم هو يوم مولدي. لقد أجابوني عن كل أسئلتي.. وبعدها بشهرين اعتنقتُ الإسلام.

ختم كريم كلامه:

- الحمد والشكر لله ، ولا إله إلا الله وصلى الله على محمد.

قالت السيدة شريفة لكريم وكأنها تؤنبه:

- انساه واعف عنه يا رجل. حقك محفوظ عند خالقك.

- أعدك إني سأحاول قدر استطاعتي. ولكني لا أستطيع نسيان أفعالة المنحرفة.

- شكرًا يا كريم. ماذا عنكِ يا لورا؟

قالت لورا:

- بالطبع سيدتي، أنا لا أعرف كيف أختصر، أرجوكم أن تصبروا وتتحملوني.

ثم نظرت إلى الحضور وقالت:

- لقد وُلدتُ وتربيتُ في بيتٍ من المورمون في ولاية (أريزونا). وكنتُ متمردة ودائمة البحث عن الحقيقة. وبعد تخرجي في الثانوية ذهبتُ للدراسة في جامعة (أوريقن)، وهناك قابلتُ الكثير من الناس؛ وخاصةً الكاثوليك منهم، والذين عرفوني على كنيستهم. وصرت أذهب إلى الكنيسة باستمرار لمدة ستة شهور. وفي أحد الأيام ذهبت وبعض الأصدقاء إلى محاضرة ألقاها العالم وأستاذ الفيزياء "بي زيّ ماير"، وهو أيضًا من كبار منظري الفكر الإلحادي في أمريكا. ومرة أخرى تحولت لأعتنق الفكر الإلحادي، وحرصت على دراسته ومن كبار منظريه. كنت مقتنعة به، ولكني لم أكن سعيدة وكان جوفي فارغًا روحيًا.

وفي ذات مساء اتصلت أمي وقالت إن جدتي قد توفيت. قرَّرت الذهاب لحضور مراسم الجنازة، وفي الطريق توقفت في محطة للوقود لشراء بعض الحاجيات والسجائر. ولما هممت بإشعال السيجارة رأيت ورقة على زجاج المحل تقول "انضموا إلينا يا جماعة النساء حيث الحرية والصفاء وراحة البال". وبدون مبالاة نزعت الورقة ووضعتها في جيبي.

وبعد أسبوع من مراسم الدفن، عدتُ أدراجي إلى (أوريقن). وعندما هممتُ بغسل ملابسي؛ وجدتُ الورقة.. اتصلت عليهم، رحبوا بي وأخبروني أنهم جمعية نسائية تعني بالشأن الصوفي.

وفي اليوم الثاني جاءتني مجموعة من النساء وأخذوني حيث يلتقون،دخلتْ علينا إحداهن بلباسها الأبيض المحتشم حيث بدت وكأنها ملاك، وأخذت تتحدث بصوتٍ عذب.

توقفت عن الحديث ونظرت حولها لتتأكد من أنهم يسمعونها. نظرت إليها السيدة شريفة وأشارت عليها بيدها لتكمل...

- لقد علمتُ لاحقًا أن هذه السيدة ذات الرداء الأبيض قد سافرت في الأرض كلها بحثًا عن الحقيقة، وأخيرًا وجدتها؛ كما تقول؛ في إحدى القرى الصوفية شمال مالي.

كان الجميع يناديها الشيخة مريم. بصراحة أعجبتني تلك المرأة لقد كانت واثقة ومتحدثة وكثيرة الدعاء والصلاة والصيام. أذكر إنها قالت لي ذات مرة: "يجب على الشخص أن يطهر قلبه وبدنه بلا توقف، إذ أن طهارة القلب والبدن هي أقرب الطرق إلى الله عز وجل". ودائمًا وفي كل خطبها كانت تؤشر بإصبعها نحونا وهي تردد الآية الكريمة: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

صفَّق كل الحضور لها. فيما عقَّبت السيدة شريفة قائلة:

- ممتاز، من الجيد أن نسمع أنكِ قد خضتِ التجربة بعد الأخرى لتجدي الحقيقة.

استمرت هذه الحلقة الدراسية المفتوحة حتى صلاة العشاء.

أحسَّت "كارول" عند انتهاء المعسكر الشتوي وكأنها وُلدت من جديد. وكانت السعادة تغمر قلبها، كل من كان حولها من الأصدقاء في العمل، وحتى أصحابها في النادي الرياضي لاحظوا التغيير الإيجابي التي اكتسبته.

وفي أحد أيام الآحاد اتصلت على أمها قائلة:

- احزري يا أمي! لقد وجدت الحب.

غمرت السعادة قلب أم "كارول" وهي تسمع وتشعر بالحماسة التي كانت في نبرة صوت ابنتها وأجابت:

- هذا شيء جيد. هل قلتِ أنكِ وقعتِ بالحب، أنا سعيدة من أجلك يا ابنتي. كم عمره؟ وأين يعمل؟ هل هو جميل؟ أتمنى ألا يكون مثل أبيكِ!

- لا يا أمي. الأمر ليس كما تعتقدين. أنا أقصد إني وجدتُ الله وسأعيش على محبته ورحمته.. وجدت الراحة والحب والسعادة تغمر قلبي يا أمي. أصبح لي هدفًا أعيش من أجله.

بعد سنة قرَّرت "كارول" الذهاب إلى مدينة "فاس" في المغرب لحضور المهرجان الصوفي العالمي. وهناك تعرفت على المزيد من عادات وطقوس الصوفية. الرحلة لم تدم إلا أسبوعًا واحدًا ولكنها كانت أعجوبة ودروس بالتاريخ والفلسفة والموسيقى الروحية والإيمان بالنسبة لها.

وفي اليوم الذي سبق رحلتها قررت "كارول" التجول في أحياء وطرق مدينة "فاس" الضيقة وربما التسوق وأخذ الصور الفوتوغرافية. كانت تمشي ببطء حتى لا يفوتها شيء. أحست وكأنها في كوكب آخر؛ حيث البيوت البيضاء ذوات النوافذ الزرقاء، والملابس الفضفاضة، وأصوات الباعة، وصراخ الأطفال وهم يلعبون.

وفي أحد الأزقة الهادئة وجدت رجلاً في أواخر عمره يرتدي الزيَّ المغربي جالسًا القرفصاء وينفخ في آلة الناي المصنوعة من القصب، يسترزق منها..اقتربتْ منه بهدوء وهي تنصت إلى عزفه الذي أخذها بعيدًا حيث امتزجت مشاعرها، تشعر تارة بالحزن والشجن وتارةً أخرى بالسعادة والفرح، كانت مشاعرها مختلطة وهي تسمع صوت الناي.

اقتربت أكثر وسألته:

ـ ما هذه الآلة الخشبية؟

أجابها الرجل قائلاً وهو يبتسم:

ـ إنها صوت الأرض! اقتربي يا ابنتي لا تخافي.

ثم سألها:

ـ هل أنتِ أمريكية؟ أنا أعرفكم من لكنتكم.

ضحكت "كارول" وقالت:

ـ هل اسمها فعلاً صوت الأرض؟

- لا، لا. إنه الناي القصبي. ولكني أسميته صوت الأرض.

- اسم جميل. ولكن لماذا؟

- اسمعي يا ابنتي... قبل أن يخلق الله الخلائق، كان الصوت الوحيد هو صوت الناي. قد تسألين كيف؟ عندما تهب الرياح تصطدم بالشقوق التي بالجبال والوديان، ويصدر منها ذلك الصوت الجميل تمامًا كصوت الناي، وكان ذلك الصوت هو مؤنس الأرض. لذلك أسميته صوت الأرض. ولعلمك هذه الآلة هي مؤنسي ومصدر رزقي.

- هذا مدهش. أنت حقًا إنسان مدهش. سأقول هذا لأمي حين أراها.

ثم أكملت سيرها.. وعندما أخذ منها التعب جلست في أحد المقاهي الشعبية لاحتساء بعض الشاي المغربي. وفيما هي تحتسي الشاي اقترب منها شخص متوسط القامة، أبيض البشرة مفلت العضلات وبادرها قائلاً:

- مرحبًا، هل أنتِ سائحة؟

- نعم. ولكن لحضور المهرجان الصوفي العالمي.

- وأنا هنا لنفس السبب.

دعته للجلوس وأخذا يتبادلان الحديث ويحتسيان الشاي المغربي المنعش. كان ممن اعتنقوا الإسلام الصوفي منذ سنين، وهو من أب اسكتلندي وأم مغربية ويعمل مدرسًا للغة الإنجليزية.

وبعد سنة ونصف عادت إلى المغرب وتزوجت من نفس ذلك الرجل الاسكتلندي الذي يسكن ويعمل في مدينة "طنجة" على سفوح جبال الأطلس.

• • •

▪ **خلاصة القصة :**

ابحث دومًا بلا كلل أو ملل عن الحب الأزلي. واعلم أن كل الأشياء الحلوة والمُرة التي تمرّ بها في حياتك ما هي إلا أدوات لتصقلك وتجهزك لما هو آت.

ياسمين و القديسة

لكي تعيش ناجحًا عليك أن تختار وأن تحسن الاختيار ،

وعليك أن تعرف ما تريد وما الرسالة التي تحملها ،

وإلى أين تود أن توجهها .

كوفي عنان

كانت ياسمين ذات العشرة أعوام، تعانى من أعراض الأنفلونزا الموسمية، والتي أقعدتها طريحة الفراش لمدة خمسة أيام. ياسمين في غاية الذكاء، حيث سُمح لها أن تلتحق بالصف الأول عندما كانت في الخامسة من عمرها، وهي جميلة ونحيفة القوام، كما أنها شعلة من النشاط. وهي بالفعل ابنة أبيها الصغيرة بكل ما تعنيه الكلمة.

في اليوم الخامس من مرضها، فتحت عينيها الواسعتين ذات اللون العسلي، ونظرت إلى أبيها "عمر" والذي كان يجلس بجوارها ويرعاها خلال فترة مرضها، ثم قالت:

- هل من الممكن أن نتناول الطعام بأحد المطاعم اليوم؟ أشتاق إلى تناول شطيرة الهامبرجر مع البطاطس المقلية ومشروب حليب الشوكولاتة المخفوق.

أجاب والدها؛ معتقدًا أن هذا يمثل إشارة جيدة على مثولها للشفاء:

- نعم بالطبع نستطيع. هيا إلى الحمام لتأخذي دُشًّا دافئًا وتغيري ملابسك، بينما أستعد أنا لذلك أيضًا.

ثم توسلت ياسمين أبيها قائلة:

- أبي، هل من الممكن أن أتصل بصديقتي "دانا"، أود أن ترافقنا.

- نعم بالطبع تستطيعين يا فتاتي، فقط اتصلي بها على الهاتف وأخبريها بذلك.

ركب الجميع السيارة وربطوا أحزمة الأمان وانطلقوا في طريقهم. وقد قرَّر والدها أن يصطحب كل من ياسمين ودانا إلى حيث يوجد المجمع التجاري والمسمى (جالاكسي مول) حيث حرص والدها أن يتأكد من أنها أكلت جيدًا ولعبت وشاهدت فيلمًا للأطفال حتى تعوض الأيام التي قضتها طريحة الفراش.

وبينما كانوا في الطريق، أخبرها والدها أنه سوف يتوقف عند نادي كرة القدم المفضل لدية لبضع دقائق، حيث كان يحتاج إلى تسليمهم بعض المقالات التي تطوع أن يكتبها لمسئول العلاقات العامة بالنادي.

سألته ياسمين وبنبرة صوتها الرقيق الملائكي قائلة:

- هل من الممكن أن أرافقك إلى النادي؟

- بالطبع يمكنك ذلك.

فقد كان يعرف أنها تحب كرة القدم أيضًا، وأنها تعرف أسماء جميع اللاعبين في هذا النادي، طبعًا من خلال إخوانها الأكبر منها سِنًّا.

توجه الثلاثة نحو البوابة الرئيسية للنادي. وبينما كانوا يدخلون من خلالها، طلب حارس الأمن - والذي كان قد عُين حديثًا في النادي- من والد ياسمين أن يبرز بطاقة عضويته بالنادي. فأخرج حافظة نقوده من جيبه وأظهر له بطاقة العضوية. غير أن حارس الأمن أخبره أن هذا النادي للرجال فقط وأنه غير

مسموح بدخول السيدات. فنظر والد ياسمين من حوله ثم نظر خلفه. ثم سأل الحارس وهو في قمة الاندهاش:

- هل تتحدث إليَّ؟ وأين السيدات اللاتي تتحدث عنهن؟

فأشار الحارس نحو ياسمين وصديقتها دانا.

فرد الوالد قائلاً:

- هؤلاء لسن بسيدات، هاتان طفلتان. ألا تستطيع أن تحدد ذلك؟ هناك عقل ومنطق، فحكِّم عقلك وانظر مرة أخرى إليهما.

- سيدي أنا أجير مأمور، لقد تسلمنا مذكرة من السلطات المسئولة مفادها بأن لا نسمح لأي إناث بالدخول إلى النوادي الخاصة بالرجال.

- يا أخي على عيني ورأسي، لكن هل ذكر الخطاب الأطفال أيضًا؟

- لا، فقط النساء، وهؤلاء نساء بالنسبة لي.

شعر عمر بالاشمئزاز من تلك الإجابة التي أفاد بها الحارس.. نظر إلى ابنته فرأى عينيها تمتلئ ببضع دموع تكاد أن تنهمر على وجنتيها، فطمأنها بأن الأمر هين وأن لا تحمل همًّا وأنه قدرها الذي جعلها تُولد وتعيش في بلاد كبلادها. ثم عانقها قائلاً:

- لا عليك لما يقوله هذا المتخلف. والآن دعينا نذهب إلى المركز التجاري ونستمتع بوقتنا هناك.

ولبرهة من الوقت شعر عمر وكأنه يعيش في مجتمع يشبه ذلك المجتمع الذي تحكمه جماعة "طالبان" بأفغانستان. ثم انتابته

فكرة أن النساء في كل أنحاء العالم قد يصبحن قادة، ورؤساء، وأطباء، وعلماء وطيارين.. غير أنه في هذا البلد، حتى الفتيات الصغيرات الجميلات لا يستطعن أن يرافقن آبائهن إلى نادي كرة القدم.. حقًا يا له من عار!.

ثم قال في نفسه: " لِمَ لا يخترعون إبرة يأخذها المواطن في هذه البلاد قبل الزواج كي لا ينجب إلا ذكورًا".

وبينما كان يقود في طريقه نحو المركز التجاري، بدأت تدور في رأسه الأفكار والأسئلة، فكان يحدث نفسه قائلاً: " من قال إننا نعيش على كوكب واحد، لا بد وأننا نعيش على كوكب خاص بنا. بل يجب أن يُقسم كوكب الأرض إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول تسكنه المجتمعات التي تنعم بالحرية، والقسم الثاني تقطنه المجتمعات الاجتماعية والتي تنعم ببعض الحرية، بينما الثالث تسكنه مجتمعات الذكور فقط".

وتعجب حول السبب الذي يجعل المجتمعات الأخرى منهمكة بالأبحاث العلمية المختلفة واستكشاف الكون وتطوير الخلايا الجذعية والأدوية الطبية، ونرى أن كلا الجنسين يتنافسان في الساحات الرياضية العالمية، في حين أن مجتمعاتنا منهمكة في التقصي والتأكد من أن كل النساء ملتزمات بلبس ما يغطيهن تمامًا فلا يظهر منهن أي شيء، وأن يلزمن منازلهن، والفتيات يتم مطاردتهن في الشوارع ويُمنعن من ممارسة حقوقهن

الأساسية مثل الذهاب إلى النوادي الرياضية الخاصة بهم... حقًا يا له من عار!

ثم استمر في طرح الأسئلة على نفسه: "هل الرجال ملائكة منزهين عن الخطايا والذنوب في حين أن النساء شياطين ملعونات؟ لابد وأن هناك شيء خطأ، ولكن يا ترى أين يكمن هذا الخطأ بالضبط؟! لماذا تعطيل نصف المجتمع ولمصلحة من؟ هل رجال ومشايخ هذه البلاد هم من يقرر من يدخل الجنة؟ وهل الجنة محصورة بتقييد حريات الناس وخاصة النساء؟".

مما لا شك فيه أن هذا الموقف قد أثَّر في عمر وجعله يشعر بالارتباك والاستياء، خاصةً عندما رأى الدموع في عيني ابنته الوحيدة، فقرَّر أن يعلق عضويته بالنادي؛ رغم الاعتذار الذي قدمه له مدير النادي حول ما حدث.

وفي إحدى خطب يوم الجمعة - والتي كان عمر دائم الحرص على حضورها - سمع عمر الشيخ الذي يُلقي خطبة الجمعة وهو يقول: "النساء مذنبات، وعورة يجب أن تصان، والرجال دائمًا بحاجة إلى مراقبتهن. وإذا لم يرتدين حجابهن وما يغطي كل جسدهن، أو في حال خروجهن من المنزل، فإنهن يحتاجن إلى تقويم وتأديب بأي وسيلة ممكنة، بما في ذلك العقاب البدني".

أثارت تلك الأحداث المتعاقبة حفيظة عمر. ولهذا اتصل بأحد الأصدقاء الأتقياء والذي كان يسكن في مدينة أخرى، على أمل

أن يخفِّف ذلك من حدة ما يشعر به من استياء، والذي ربما يكون سوء فهم لما يدور حوله... أنصت صديق عمر جيدًا، غير أنه لم يعلق على ذلك كثيرًا، واكتفى بالتعوذ والتسبيح، وذلك لأنه ربما كان مصدومًا أيضًا مما سمعه من عمر.

وفي اليوم التالي، استخدم عمر حاسوبه المحمول لكي يرسل بريدًا إلكترونيًا لأحد الأصدقاء.. ومما أثار دهشته أنه وجد رسالة من صديقه الذي كان قد تحدث إليه عبر الهاتف يوم أمس، وكانت الرسالة متعلقة بالقصة التي حكاها له عمر.

حيث كتب صديق عمر يقول:

- أن رجلاً رجعيًا متخلفًا كان يخاطب جمعًا من الناس قائلاً إن النساء كالأحذية: تشتريها، وتلبسها وفي النهاية ترميها. وكان ضمن هذا الحشد امرأة حكيمة وعاقلة، فبادرها هذا الجمع بالسؤال عن انطباعها عما سمعته من هذا المتحدث. فأجابت قائلة: "إن من تحدث بذلك لا يعدو أن يكون سوى قدم قذر متعفن ولا يستحق حتى الحذاء الذي يلبسه. ولو قارن النساء برأسه بدل قدمه لكانت النساء بمثابة التاج الذهبي الذي يحمله الملوك فوق رؤوسهم". يا أخ عمر هؤلاء قد يروا أخواتهم وبناتهم وأمهاتهم كالأحذية، ولكن جُلّ الناس من العقلاء والمتعلمين يرونهم كالتيجان والمسك والريحان... وهكذا هي ابنتك.

أُعجب عمر برسالة صديقه، وقام بالرد عليها كاتبًا:

- أنت على صواب تمامًا، فالنساء هنَّ حياتي، وهنَّ التاج الذهبي الذي يزين رؤوسنا. فعندما أبحث عن الحب والراحة، أجدهما دائمًا في النساء، وهنَّ يقدمن ذلك بمنتهى الرضا والرغبة في العطاء. أني والله أجد السعادة بقرب أمي وأختي وزوجتي وابنتي، وبكل نجاح تحققه نساء بلدي.

ثم أضاف قائلاً في رسالته:

- إذا كان هناك شيء واحد فقط يتصف بالروعة والجمال في هذه الحياة، فلابد أن يكون هذا الشيء هو امرأة. ولماذا بحق الجحيم نحن على هذه الدرجة الكبيرة من الاختلاف عن بقية العالم؟ ولماذا تُعامل النساء بتلك الطرق المتخلفة الصارمة في بلادنا؟ هل هو عدم ثقة؟ أم خوف بأن ينافسننا على أرزاقنا؟ أم هو العار كما كان ينظر إليهن في الجاهلية؟ أم هو الدين؟... ماذا يا ترى؟

ردَّ عليه صديقه التقيّ كاتبًا:

- أنا لا أعتقد ذلك، فالماليزيون والإندونيسيون والتونسيون والمغاربة والمصريون والأفارقة وبعض الروس والصينيين وكل من يقطنون آسيا الوسطى؛ يتبعون نفس الدين، إلا أن نساءهم متعلمات، ويقومن بالأدوار والوظائف التي يقوم بها الرجال. وإندونيسيا تعد أكبر دولة إسلامية في العالم، وأول رئيس لهذه الدولة بعد الثورة؛ كانت سيدة.

ثم أرسل عمر رسالة أخرى عبر البريد الإلكتروني يسأل:

- إذًا ما السبب وراء هذا كله؟ هل تملك هذه الشعوب المسلمة الأخرى كُتبًا سماويةً مختلفةً عن ما لدينا من كُتب؟

أجاب عليه صديقه أيضًا كاتبًا:

- كلا، فالإله واحد، حيث قال في سورة الأحزاب (الآية ٣٥):

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }.

ومن خلال نص الآية، يمكنك أن تدرك روح العدالة والمساواة، فالآية لا تتحدث فقط عن الرجال، وإنما عن الرجال والنساء معًا. إن هذا يمثل ما يدعو إليه أي دين. والآن، هل يدرك الناس ذلك؟ أنا لست على يقين من ذلك. وأود أيضًا أن أطلب منك أن تقرأ ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الصدد، حيث قال: {ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم}.

ثم استفسر عمر كاتبًا:

- إذًا لماذا يُمنح الرجال كل الامتيازات، في حين أن النساء يُحرمن من الحصول على أبسط حقوقهن الأساسية؟

أجاب صديقه على رسالته بعد أسبوع نظرًا لانشغالاته الدعوية:

- عزيزي عمر، رجاءً لا تنزعج من أفعال أرتكبها بعض الأشخاص الجهلة، وبغض النظر عن هوية هذا الشخص أو المنصب الذي يتقلده، ولكن عش حياتك فقط كإنسان صالح ومتحضر كما تعيشها الآن، وصدقني يا أبو ياسمين، فمهما يكن ما يفعلونه، فهذا لن يؤثر على حياة ياسمين السعيدة أو على مستقبلها، إذا كان هذا ما يقلقك حقًا... ومن قال إن الرجال قديسون؟ فكل الأخطاء التي تُرتكب في هذه الحياة هي من فعل الرجال، بل النساء أيضًا من الممكن أن يكن قديسات. ودعنا نضرب مثالاً على ذلك، تلك السيدة العراقية التي عاشت في القرن السابع الهجري (رابعة العدوية)، فقد كانت قديسة مباركة بحق.

اشترى عمر بعد ذلك كتابًا عن رابعة العدوية وقدَّمه لابنته كهدية في عيد ميلادها. وفي كل ليلة، كانت ياسمين تطلب من والدها أن يقرأ لها قصة كما اعتاد أن يفعل عندما كانت أصغر سِنًّا.

في الليلة الأولى، قرأ لها والدها:

(وُلدت رابعة في أسرة فقيرة جدًا. حيث تزوج والدها إسماعيل من والدتها وانتقل للعيش بالقرب من حدود الصحراء في مكان ليس ببعيد عن مدينة "البصرة". وبعد بضع سنوات، رُزق

الزوجان بابنة، والتي قرر الوالد أن يسميها رابعة. ثم رُزقا بابنة أخرى، والتي سماها الوالد رابعة الثانية، ثم رُزقا بابنة ثالثة، فسماها رابعة الثالثة، ورُزقا أخيرًا بابنة أخرى فسماها رابعة الرابعة؛ وهذه هي التي أصبحت قديسة صاحبة معجزات وكرامات.

ويقال إنه في الليلة التي وُلدت فيها رابعة، كان البيت يخلو حتى من قطرة زيت يدهن به سر المولودة الجديدة ولم يكن يوجد قطعة قماش تُلف بها. ولهذا طلبت والدتها من زوجها - في محاولة يائسة - أن يذهب إلى منزل جارهم ويستجدي منهم بعض الزيت حتى تستطيع أن تشعل المصباح الذي ينير المنزل، وأيضًا لدهن سر الوليدة)...

وعندئذٍ غلب ياسمين النوم، فقام والدها بتحديد المكان الذي توقف عنده وذهب إلى الفراش هو أيضًا.

وفي الليلة الثانية، كانت ياسمين متشوقة لسماع بقية القصة. فأخذ والدها يقرأ لها بكل سعادة:

(وكان والد رابعة قد قطع على نفسه عهدًا بأن لا يطلب أبدًا من أي إنسان أي شيء. ولذلك، خرج من المنزل ثم وضع يده على باب جاره، ثم عاد إلى منزله بدون أن يسألهم أي شيء. وقال لزوجته "إنهم لم يفتحوا الباب". وعندما سمعت ذلك، بكت والدة رابعة بمرارة شديدة. وكان والد رابعة يغشاه الشعور بالهمِّ وقلة

الحيلة حيال هذا الموقف، فوضع رأسه على ركبتيه وراحت عيناه في النوم.

وبينما كان نائمًا، رأى في الحلم وكأن ملاكًا أتى إليه وقال له: "لا تحزن. فالبنت التي وُلدت منذ قليل هي ملكة بين بني جنسها من النساء وستكون شفيعًا لسبعين ألفًا منهن. وفي الغد، عليك أن تذهب إلى حاكم البصرة، وأن تكتب هذه الرسالة على قطعة من الورق وأن تحمل هذه الرسالة إليه: (إنك تقدم لي في كل ليلة مائة تسبيحة، وفي ليلة الجمعة تقدم لي أربعمائة تسبيحة. والليلة الماضية كانت ليلة الجمعة وقد نسيتني. ولكي تصحح ما بدر منك من سهو ونسيان، أعطِ هذا الرجل أربعمائة دينار، والتي كسبها ويستحقها كمال حلال)."

وعندما أفاق من نومه وتذكر هذا الحلم، انفجر والد رابعة في البكاء، غير أنه نهض من الفراش وكتب ما أخبره به الملاك بالضبط على قطعة من الورق. ثم أخذ الرسالة وقدمها لواحد من مساعدي حاكم المدينة. وبمجرد أن تسلم الحاكم الرسالة وقرأها، قال لوزيره: "قم بتوزيع ألفي دينار على الفقراء على الفور، حيث أنني يجب أن أشكر الإله على تذكيري بسهوي ونسياني. وأعطي أيضًا أربعمائة دينار لهذا الرجل العجوز" ثم توجه لإسماعيل والد رابعة وقال له: إنني أود أن تقوم بزيارتي حتى أراك دومًا. غير أنني لا أرى أنه من المناسب بالنسبة

لرجل مثلك أن تأتي لزيارتي وتترك أهلك. إنني أفضل أن آتي أنا إليك وأن أتمسح بلحيتي على عتبة منزلك. وأيضًا أستحلفك بالله أن تطلب مني كل ما تحتاج إليه في أي وقت....)

شعر عمر بالنوم، بينما ياسمين ما زالت مستيقظة، فتوقف عند ذلك قائلاً:

- حسنًا، دعينا نكتفي الليلة بهذا القدر.

توسلت إليه ياسمين قائلة:

- رجاءً، رجاءً.. اقرأ لي المزيد من القصة.

واصل عمر سرده لبقية القصة.

(شعر والد رابعة بفرحة وسعادة غامرة وأخذ النقود وهو يحمد الله ويثنى عليه. فذهب للسوق واشترى الطعام والزيت وكل ما طالت يده وهو يحمد ويشكر.

وعندما بلغت رابعة سن الحادية عشر، تُوفي والدها تاركًا خلفه زوجته وأربع من البنات يعانين جميعًا من الفقر الشديد، وذلك للوعد الذي قطعة إسماعيل على نفسه بان لا يسأل أحدًا حتى ولو أدَّى ذلك إلى موته.

ثم بعد ذلك قررت الأم أن تنتقل ببناتها الأربع إلى مدينة البصرة، حيث كانت تأمل في أن تحصل على مصدر رزق أفضل يكفيها هي وأطفالها. غير أنه وبينما كنَّ في طريقهن نحو

البصرة، هاجمهن قُطَّاع طرق، فقُتلت الأم وأُسرت البنات الأربع كعبيد من قبل هؤلاء اللصوص....)

فتحت ياسمين عينيها وسألت والنوم يغالبها:

- كيف يمكنهم أن يفعلوا شيء كهذا؟

فوضع عمر يده على رأسها وقال في هدوء:

- إنهم أناس همجيون وبدائيون، وليسوا متعلمين، وعادة ما يكسبون قوتهم من السرقة والسطو... أنتِ تحتاجين إلى الذهاب إلى الفراش وأخذ قسط من النوم. يجب أن تذهبي إلى المدرسة غدًا وتقدمي ما قمتي برسمه إلى معلمة التربية الفنية.

في الليلة الثالثة، كانت ياسمين تشعر بالنعاس، حيث أنها كانت قد لعبت الكرة الطائرة في منزل صديقتها عصر ذلك اليوم. ورغم شعورها بالإرهاق والتعب، أصرَّت أن يقرأ لها والدها بقية القصة... فأمسك والدها بالكتاب وبدأ يقرأ:

(لقد بيعت رابعة لرجل موسيقى. وكانت جميلة الوجه وذات صوتٍ عذب. وقد علمها سيدها - الموسيقار- كيف تغني وتعزف على آلة العود، وكان يرسلها لحفلات الزفاف والاحتفالات الأخرى، حيث كانت ترقص وتغني، والناس يدفعون لها المال مقابل ذلك. وبهذه الطريقة، أصبح لديها الكثير من العادات والخِصال السيئة. واستمر ذلك حتى بلغت من العمر الستة والثلاثين عامًا... وذات يوم بينما كانت تغني في أحد حفلات

الزفاف؛ وجدت نفسها تغني بطريقة مختلفة، حيث كانت الأغاني هذه المرة تصدر من قلبها مباشرة، وكانت هذه الأغاني في مجملها عبارة عن أناشيد روحية، وقد أثار هذا غضب سيدها بدرجة كبيرة، فبدأ يعاملها بشكل سيئ ويعاقبها بالضرب؛ وحتى بحرق جسدها بالنار....)

في الليلة الرابعة، كان عمر في رحلة عمل، لهذا طلبت ياسمين من والدتها أن تكمل لها قراءة القصة... رحبت والدتها بذلك وأخذت تقرأ:

(بعد فترة من الوقت، وجد سيدها أنها لم تعد ذات فائدة ونفع بالنسبة له، لذلك قرَّر أن يبيعها في سوق النخاسة. فأصبح لها سيد جديد، وكان رجلاً لطيفًا أكبر سِنًّا من سيدها الأول. وبينما كانا في الطريق نحو منزله، نظرت رابعة في عينيه ثم قالت له: "إذا كنتَ اشتريتني من أجل إرضاء الله، فالله سوف يثيبك كل الخير على ذلك، ولكن إذا كنتَ فعلتَ ذلك من أجل حاجة في نفسك مني فقط، فليس لديَّ أي شيء أقدمه لك، لقد نذرتُ نفسي لله، فكل شيء قد أحتاجه سيمنحني إياه الله ربي الكريم، ولستُ بحاجة إلى شيء من أي بشر". فأجاب الرجل العجوز على كلامها قائلاً إنه يودُّ أن يتزوجها وأن يعتقها فتصبح حُرَّة. لكنها رفضت ذلك العرض. وكان الرجل غاية في الكرم والشفقة، فأعتقها لوجه الله.

بدأت رابعة حياتها الروحية بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة. وقرَّرت أنه لا حاجة لها في أي زوج دنيوي، بل سيكون همها الأكبر هو محبة الله. ولهذا لم تتزوج أبدًا حتى وفاتها. وكانت دائمًا تقول: "سكينتي وراحتي في وحدتي، حيث أكون في معية وصحبة الله ربي وحبي الأزلي، أشاهد جماله في دعائي وقنوتي، وهو مشكاة صلاتي. يا شافي النفوس وطبيبها، فالقلب يحيا على مصدر عشقه ورغبته، وسعيه الحثيث نحو الإتحاد والقرب منك. اشفي نفسي العليلة، فأنت مصدر فرحتي وأُنسي. وأنت دائمًا مصدر حياتي ومنبعها، من فيض نورك تتحقق بهجتي ونشوتي. لقد زهدتُ كل المخلوقات رجاءً وطمعًا في قربك، وهذا دومًا سيكون هدفي وديدني"....)

ثم توقفت والدة ياسمين عن القراءة ونظرت إلى ابنتها.. حيث كانت نائمة كالملاك.

في الليلة الخامسة، طلبت ياسمين من والدتها أن تكمل لها قراءة القصة قائلة:

- إنك تقرأين القصة أفضل من أبي، ولقد تعودتُ على نبرة صوتك، والأهم من كل هذا، هو أنك تقرأين الكثير، أو حتى أغطُّ في النوم.

أجابت والدتها بدهشة قائلة:

- لقد اعتقدتُ أنكِ أحببتِ قراءة والدك وتعجبك كثيرًا، فهو دومًا من يقرأ لكِ يا شقية.

- بالفعل أحب قراءته، ولكنه دائمًا يكون متعجلا، فهو يقرأ لي قليلاً من القصة ثم يطلب مني أن أذهب إلى الفراش.

فابتسمت والدتها وعقبت قائلة:

- إنكِ تعرفين جيدًا كم هو مشغول.

ثم جذبتْ برفق أنف ياسمين وقالت:

- حسنًا، الليلة سوف أقرأ لكِ بقية القصة بأكملها.

ثم بدأت والدة ياسمين في قراءة القصة:

(كانت رابعة دائمًا تقول إن هناك ثلاثة أصناف من الرجال: الصنف الأول يعتقد أن يديه وأيدي أبناءه تمثل الأشياء الأكثر أهمية للنجاح والفوز في العالم الوحيد الذي يعرفونه؛ ألا وهو العالم المادي. والصنف الثاني يرفع أكف يديه تضرعًا ودعاءً لله يرجو ثواب وأجر هذا الدعاء في الدنيا والآخرة. والصنف الثالث يداه مقيدتان بالحب والعطاء، يعطي بدون التفكير في أي مقابل ينتظره من أحد".

وحدث ذات مرة أنها كانت مستعدة للذهاب إلى حج بيت الله الحرام في مكة، وانضمت لقوافل الحجيج، وكان لديها حمار صغير، وكان يحمل أمتعتها الخاصة برحلتها. وفي الطريق وسط الصحراء مات الحمار، وعرض عليها بعض الأشخاص

الذين كانوا في القافلة أن يحملوا أمتعتها لها، ولكنها قالت لهم: "أكملوا سفركم، لأنني لا يجب أن أعتمد مساعدة أيًّا كان، إني أثق في كرم ورحمة ربي وأنه من يساعد عبده". وعندما أحسوا أنهم لن يستطيعوا إقناعها بغير ذلك، واصل الحجاج الآخرون طريقهم، وظلَّت رابعة بمفردها في خضم تلك الصحراء القاحلة الشاسعة والتي كانت تحيط بها من كل اتجاه.. فتضرعت بالدعاء لربها قائلة: "ربي، أهكذا يكون حال الملوك مع امرأة ضعيفة وغريبة مثلي؟ فلقد دعوتني لزيارة بيتك الحرام، غير أنه وفي منتصف الطريق، قدّرت لحماري أن يموت، وها قد تركتني وحيدة في عرض الصحراء". ولم تكد تنتهي من الدعاء حتى بدأ حمارها يتحرك ثم نهض واقفًا.. فوضعت رابعة أمتعتها مرة أخرى على ظهره، ومضت في طريقها لتكمل الرحلة.

وقد سأل أحد الناس رابعة أثناء أداء فريضة الحج قائلاً: "ما هو الحب؟ فأجابت: الحب قد أتى من الخلود ويمضي إلى الخلود، ولم يوجد في السبعين ألف عالمًا من تذوق قطرة منه حتى ذاب حُبًّا وعشقًا به سبحانه، ومن هنا أتت الكلمات التي تحملها آيات كتابه الكريم في قوله سبحانه وتعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}

(سورة المائدة – الآية ٥٤).

وقبل وفاتها بسبع سنوات، سافرت إلى مدينة القدس مع امرأة أخرى كرفيقة وخادمة لها، حيث اشترت منزلاً صغيرًا تحيط به

قطعة أرض ويقع على قمة جبل الزيتون. وظلت تعبد الله وتعلِّم الناس كيفية التقرب إلى الله بالحب الصادق، والأهم من ذلك؛ معالجة قلوب الناس وعقولهم من إتباع العقائد الزائفة والخاطئة.

وقد وافتها المنية في عام ٨٠١ ميلادية، وبعد وفاتها، بنى لها محبوها وأتباعها مقبرة، والتي ما زالت موجودة بجوار كنيسة الصعود المسيحية الواقعة على قمة جبل الزيتون).

لقد ألهمت هذه القصة ياسمين بشكل واضح. فقالت لوالدتها:

- لم أكن أعرف أنه كانت توجد سيدة قديسة من قبل حتى هذه اللحظة.

- حسنًا، حبيبتي، إن الدرس الذي نتعلمه هنا هو أنه بغض النظر عن صعوبة ومشقة الحياة، هناك دائمًا طرق للوصول إلى محبة الله وغفرانه.

وبينما كانت ياسمين تتثاءب، استطاعت أن تقول:

- أمي، إنني أود أن أكون مثلها، مثل رابعة.

- نعم تستطيعين. فالحياة مليئة بالاختيارات. ولكن عليكِ أن تتأكدي من اختيار أكثر الأشياء حُبًّا وقبولاً إلى قلبك.

ثم سألت الأم ابنتها ياسمين عن رأيها في هذه القصة، فأجابت:

- الحياة ليست سهلة؛ كما يقول ذلك دائمًا أبي. هل أنا محقة يا أمي؟ انظري إلى حياة رابعة.. لقد عاشت في أسرة فقيرة جدًا، ثم في حياة العبودية ثم في النهاية حياة القداسة.

قبَّلتها والدتها على جبينها. ثم قالت لها:

- حسنًا، ينبغي أن تعلمي أن رابعة لم تختار أن تعيش في أسرة فقيرة أو أن تكون جارية، ولكن عندما سنحت لها الفرصة أن تختار؛ اختارت أفضل حياة؛ حياة القداسة.

والآن فقد حان وقت النوم... تصبحين على خير يا ملاكي الصغير.

• • •

▪ خلاصة القصة :

في الحياة هناك الكثير من الطُرق.. فما يصنع الفارق هو أي طريق نختار، فإذا اختارت الأمة أن تحيا برجالها فقط؛ فلها من النجاح نصفه.. وإذا اختارت أن تحيا بكل فئات شعبها؛ فلها النجاح جُلُّه.

حوار فوق السحاب:

بالصفح والغفران نحيا

عندما يخامرك شعور بالاستياء نحو شخص لفعلة ما، فهذا يعني أنك مرتبط بذلك الشخص طوال عمرك، وقد يكون هذا الارتباط أقوى من لحام الحديد ... فالوسيلة الوحيدة لفض ذلك الارتباط والتحرر منه، هو بالصفح والغفران.

كاترين بوندر

كانت عقارب الساعة تشير إلى ١٢:٢٠ صباحًا بمطار البحرين عندما أُعلن عن موعد مغادرة الرحلة رقم (ب.أ. ١٢٥) المتجهة إلى مطار (هيثرو) في لندن.

وعندما صعد الركاب على متن الطائرة من طراز (بوينج ٧٤٧) أخذ أمير مقعده في الصف رقم (١٥) مقعد (أ). وبينما كان طاقم العاملين بالطائرة يساعدون المسافرين الآخرين في الوصول إلى مقاعدهم، قرَّر أمير أن يتصفح كتاب "ديباك شوبرا" تحت عنوان (محمد)، والذي كان قد اشتراه من متجر بيع الكتب بالمطار.

جاء رجل طويل القامة بلحية قصيرة تمَّ تهذيبها بشكل جيد وشعر يمتزج باللونين الأشقر الغامق والأبيض، وجلس في المقعد (ب) المجاور لأمير، ثم ربط حزام الأمان على عجل. ولمَّا استرخى؛ أخذ ينظر عن يمينه وشماله، ثم فاجأ أمير سائلاً وابتسامة الحياء تغمره:

- معذرة على السؤال، ولكن من أين اشتريت هذا الكتاب؟

- اشتريته من متجر بيع الكتب بالمطار.

- لقد سمعت عنه. إنه من أفضل الكتب مبيعًا لدى دار نشر (نيويورك تايمز). لقد كنت أنوي شراء نسخة منه ولكني لم أعثر عليه.

ثم قطع حوارهما الإعلان عن مغادرة الطائرة لمدرج المطار.

وبعد الإقلاع بلحظات قليلة، قال أمير:

- إنك محظوظ لأن المقعد المجاور لك خال. إنه من الأفضل دائمًا أن يكون لديك مساحة خالية إضافية بجوارك حيث يمكنك أن تأخذ قسطًا من النوم، فهذا مما لا شك فيه سوف يقلل عناء الساعات الطويلة للرحلة التي نسافر فيها.

- في الواقع أنا لا أستطيع أن أنام خلال الرحلة الجوية، وأنا أكره تلك الأقراص المنومة التي يستعملها بعض المسافرين، إنها تجعلني أشعر بالدوار، بالإضافة إلى أن آثارها تدوم لساعات طويلة بعد الوصول.

- أوافقك الرأي. إذا لم تكن تمانع، هل لي أن أتعرف باسمك؟

- اسمي "جيف روبرت". ولكن يمكنك أن تناديني بـ"جى آر".

- أنا أمير محمد. ويمكنك أن تناديني بـ"أمير".

- معذرة على السؤال إذا لم تكن تمانع، هل أنت مسلم؟

- ألا يمكنك أن تستشف ذلك من اسمي؟

- من أي البلاد أنت؟ إنك تبدو إندونيسيًا بدرجة كبيرة. هل أنت حقًا كذلك؟

- أنا ماليزي ولي بعض الجذور العربية من جهة أم أبي . ولكن تخمينك كان صائبًا بدرجة قريبة.

- إنك تتحدث بلهجة أمريكية شمالية جيدة إلى حدٍ ما. صدقني، دائمًا يختلط عليَّ الأمر بين العرب، والإيرانيين، والبرتغاليين

والأشخاص الذين تعود أصولهم إلى دول أمريكا الجنوبية. فهم جميعًا سواء من حيث الشكل بالنسبة لي. كما أن الأشخاص الآسيويين الذين ينتمون إلى دول الشرق الأقصى يكونون أكثر إرباكًا بالنسبة لي. وبصراحة، ذلك بسبب أنني لا أكاد أسافر إلى أي مكان خارج مدينتي الواقعة في ولاية أريزونا.

ثم أتت مضيفة الطيران وسألت "جي. آر" ما إذا كان يرغب في طلب أي مشروب، فطلب نبيذًا أبيض. ثم التفتت إلى أمير بابتسامة جميلة وسألته قائلة:

- هل ترغب في أن تطلب نفس الشيء؟

- أعتقد أن فنجانًا من الشاي سيكون جيدًا.

احتسى أمير رشفة من الشاي الدافئ وواصل كلامه قائلاً:

- لقد نشأت كشخص مسلم، غير أنه لسوء الحظ، أنا لست مسلمًا ملتزمًا بدرجة كبيرة، حيث أن زوجتي وأولادي يتبعون تعاليم ومبادئ الإسلام بصورة أفضل مني.

بعد ذلك، احتسى "جي. آر" رشفة أخرى من مشروبه وبادر بالسؤال قائلاً:

- شكرًا على صراحتك. كم تبلغ من العمر؟ تبدو وكأنك في الأربعينات؟

- لا لقد تجاوزت الخمسين عامًا يا أخي.

- بالنسبة لي أنا أبلغ ثمانية وأربعين عامًا.

- نحن قريبان في العمر بدرجة كبيرة. غير أن قلوبنا يملؤها الشباب، ألسنا كذلك؟

- بالطبع هي كذلك.

ثم سأل:

- إلى أين وجهتك؟

- أنا متجه لمحل إقامتي في مدينة (تورنتو) حيث أعمل.

ثم سأل:

- هل كنت تقضى عطلتك في البحرين أو الشرق الأوسط، كما تطلقون عليه؟

- لا يا أمير... ولكن قبل أن أجيب على سؤالك، أريدك أن تسمع مني هذه القصة لتعرف أين كنت.

- تفضل، أنا مستمع جيد.

- أنا وزوجتي كنا من المترددين بانتظام على الكنيسة. حيث كنا نحضر القداس الذي يقام كل أحد في الكنيسة الكاثوليكية الواقعة في منطقة (فينكس)، وهذه الكنيسة بالمناسبة كانت المكان الذي التقيت فيه بزوجتي.

ثم واصل كلامه قائلاً:

- لقد كنا حقًا في غاية السعادة معا، وكانت ترغب في إنجاب أطفال مني... الكثير من الأطفال.

- بالنسبة لي كشخص ماليزي حاصل على تعليم غربي، وأعرف كيف أن الأُسَر في موطني الأصلي عادة ما يكون لديهم الكثير من الأطفال، ولكن أنا وزوجتي اكتفينا بثلاثة، ولدين وبنت. ولكن يا أخي كل ما عليك هو مضاعفة مجهودك، وسوف تتحول أمنيتها إلى حقيقة.
- لا يا أمير المسألة ليست على هذا النحو. فهي لسوء الحظ أُصيبت بمرض وقد قمنا بإجراء الفحوصات اللازمة وتمَّ تشخيص حالتها على أنها مصابة بنوع نادر من سرطان البنكرياس. للأسف لم تستطع المقاومة وتحمل المرض، ولقد اختارها الله إلى جواره.

عند ذلك شعر أمير وكأن العالم بأسره قد وُضع فوق كاهله وحاول أن يتعاطف مع "جي آر". أخذ يفكر ويحدث نفسه: "ربما باستطاعتي أن أغير الموضوع أو حتى أن أتظاهر بأنني لم أسمعه جيدًا. فأنا لست عالم نفس في كل الأحوال، كما أن قلبي ضعيف عندما أسمع مثل تلك القصص الحزينة".

ثم استجمع قواه وأعقب قائلاً:

- رحمها الله وأثابها جنة الفردوس. أنت بالطبع تفتقدها كثيرًا.
- بالطبع أفتقدها كثيرًا، غير أنني على يقين بأنها تريد أن تراني سعيدًا وأن أواصل حياتي. لقد مررت بأوقات عصيبة جدًا بعد أن وافتها المنية، وذهبت للحصول على استشارة سيكولوجية

طبية، غير أن ذلك لم يكن مفيدًا بدرجة كبيرة في الواقع، حيث أصبحتُ مدمنًا للكحوليات وتعاطيت المخدرات أيضًا بين الحين والأخر، ولكنها جميعًا لم تقدم حلاً لحالة الاكتئاب التي كنت عليها. وفي النهاية قررت أن أتبع نصيحة أصدقائي بالحصول على فترة استراحة وأن أسافر في جولة حول العالم. وقد كانوا محقين في ذلك، فرؤية الأشخاص الآخرين والاستماع إلى قصصهم حول معاناتهم هونت من وطأة الحزن الذي كان في قلبي وساعدتني في التغلب على أحزاني ووحدتي.

- خيرًا فعلت يا أخي، لقد كانت هذه خطوة جيدة وحكيمة بالفعل. فما هي الأماكن التي زرتها وأنت تبحث عن السكينة؟

ثم واصل أمير كلامه بصوت هادئ ورزين:

- في الواقع أنا نفسي زرت تقريبًا معظم الأماكن، باستثناء أمريكا الجنوبية والصين، وأنا أخطط لزيارتهما بمجرد أن أدخر بعض النقود للقيام بذلك.
- لقد زرتُ هاواي، واليابان، والفلبين، ونيبال، وإندونيسيا، والهند، ودبي والبحرين.
- واو، كم من الوقت استغرقت رحلتك؟ ولكن قبل أن تجيب أريد أن أطلب كأسًا من النبيذ. هل تود أن تشاركني في ذلك؟
- ولم لا ؟.. دعنا نطلب اثنين من ذلك.

ضغط أمير على زر المناداة الخاص بمضيفة الطيران، والتي سرعان ما أحضرت لهما طلبهما.

بعد ذلك عقب "جي. آر" على الموقف وهو يضحك باستغراب:

- ليس من المفترض بالنسبة لك أن تتناول المشروبات الكحولية. فكيف لك أن تشرب النبيذ وأنت مسلم؟

أجاب أمير بصراحة وهو يشعر بالذنب قائلاً:

- لا، ليس من المفترض بالنسبة لي أن أفعل ذلك. إنها حياة "تورنتو" التي جعلتني أشرب الكحوليات. غير أنني أتناول فقط كأسين أو ثلاثة منها كل شهر، وخاصة في فصل الشتاء القارص.

بعد أن تناولوا النبيذ وتبادلا بعض الفكاهة والنكت سأل أمير:

- هل كانت رحلتك ناجحة وممتعة؟ هل أتت بأي نتائج إيجابية، أعني هل شفيت؟

- أوه نعم، لقد كانت جيدة. كما تعلم كانت هذه الرحلة لبدء حياة جديدة والتخفيف من أحزاني. في الواقع، صورة زوجتي لم تفارقني طوال هذه الرحلة، وفي كثير من الأيام شعرت وكأنها لم تزل على قيد الحياة، ولقد أحسست بوجودها مرات عدة.. ذات مرة نظرتُ إلى المرآة وبدأت أتحدثُ إليها وكأني مختل عقليًا، وفي كل مرة كنت أرى شيئًا جميلاً كنت أتمناها معي، خاصة عندما كنت في جبال الهملايا حيث كانت تحب رحلات التخييم ومشاهدة الحيوانات البرية عن قرب.

ثم أخذ نفسًا عميقًا وصمت لبضع لحظات، وواصل كلامه مستدركًا ما كان يقول:

- نعم.. نعم، لقد تعلمتُ الكثير من الأشياء خلال هذه الرحلة.

- ماذا تعلمت من هذه الرحلة؟

- في الحقيقة، أنا عادة لا أحب أن أتحدث كثيرًا، ولكني سوف أخبرك بما تعلمته من هذه الرحلة. فقد تعلمت فن الإنصات للآخرين، وفن التعبير عن ذاتي بطريقة أكثر لُطفًا وجمالاً، وكذلك تعلمتُ أن أنظر إلى الحياة على أنها محطة عبور للحياة الآخرة. وأهم من هذا كله تعرفت على الكثير من عادات وثقافات هذه الشعوب العظيمة والعريقة. في كثير من البلدان مثل (تايلاند ونيبال وشمال الهند)، عشت مع الرهبان البوذيين ورأيت الحب والتسامح بأمِّ عيني. وفي إندونيسيا، عشت مع أسرة صوفية مسلمة لمدة عشرة أيام وكانت درسًا لن أنساه ما حييت... هل تعلم يا أمير أنني تعلمت خلال هذه الأشهر الأربع أكثر مما تعلمته طيلة حياتي.

أراد أمير مقاطعته، ولكن "جي. آر" رفع يديه قائلاً:

- دعني أكمل هذه الجزئية.

ثم أكمل كلامه بحرارة وحماس، محاولاً إيصال الفكرة التي كان يستعرضها قائلاً:

- أنتم المسلمون تملكون واحدًا من أعظم الكتب السماوية، غير أنكم إما أصبحتم مكفوفين لا ترونه، أو أنكم لا تستوعبون أهميته.

- ماذا تعني بذلك؟ هل تعني القرآن الكريم؟

- نعم والذي قرأت القليل منه. إن الشيخ المسلم (شمس الدين) والذي سكنت في بيته نصحني ذات مرة ونحن نتناول الإفطار قائلاً: "املأ قلبك بالحب والتسامح قبل أن تخلد إلى النوم ولا تنم وأنت غاضب، ولا تجعل القلق أو الهم يساورك حول أي شيء يرتبط بالماضي أو الغد وسوف تكون من أسعد الناس". أخ أمير، أقسم لك أن مصير البشرية محفوف بالمخاطر إذا لم تكن قلوبنا عامرة بالحب والتسامح، لطالما كان هذان العنصران المرتبطان بالسلوك البشري من العناصر الأساسية والمهمة لبقاء البشر على مدار آلاف السنين، غير أننا هذه الأيام غير عابئين بعلم أو بجهل منا بذلك. حيثما نذهب وفي كل لحظة نعيشها، نسمع أو نبصر الغضب والكراهية وروح الانتقام والثأر. أصبح التسامح ضربًا من الخيال الذي لا نجده إلا في كتب الأطفال وكتب التراث القديمة.

- لا أجد ما أقوله في الواقع، والله إنك على حق. ولكن ما هو أفضل شيء أعجبك في إندونيسيا، اسمح لي ولكن والدتي من اندونيسيا وذلك يعني لي الكثير؟

- أعجبني شعب إندونيسيا، لقد رأيت حقًا فيهم التواضع والطيبة والتفاهم، وفوق كل ذلك؛ قلوبهم طاهرة مليئة بالترحاب والكرم رغم الفقر والعوز.

ثم استرسل مرة أخرى في كلامه ولكن هذه المرة بحماسة أكبر:

- ولكن السؤال الآن هو: ما الذي سوف يحدث لنا نحن البشر عندما يختفي ويتلاشى مبدأ التسامح من عقولنا وقلوبنا وأنفسنا؟ إجابتي الشخصية هي الانقراض والفناء!... انظر يا أمير، ليس هناك مبالغة في ذلك! فلا يوجد للبشر أعداء أو حيوانات تتغذى عليهم. إن عدونا الأول هو قلوبنا المليئة بالغضب والتعصب وانعدام الحب والتسامح والغفران.

- نعم يا "جي. آر" والله إنك على حق. تعلمتُ في كندا حيث يعيش كل أطياف البشر وبكل ألوانهم ومعتقداتهم؛ أن الوسيلة الوحيدة لحماية الناس والمحافظة على كل الأجيال القادمة تتمثل في ملء قلوبنا وأنفسنا بمعاني السلام والحب والتسامح والتكافل. قد تقول إني أبالغ ولكن هذا ما نعيشه حقًا.

في شرق العالم حيث أصولي، الناس بطبيعتهم متدينون إلى حد كبير. حيث إنهم يلتزمون ويتمسكون بدرجة كبيرة بكل الآيات التي ذكرت في كتبهم الفلسفية أو السماوية سواء كان ذلك في العهد القديم أو الجديد أو في القرآن الكريم. غير أنهم يغفلون بدرجة كبيرة - بصورة متعمدة أو غير متعمدة - عن

هذه الآيات الكثيرة التي تتحدث عن السلام، والحب والتسامح. في الحقيقة وللأسف، أصبح الشخص الأكثر تعصبًا والأقل تسامحًا هو الأكثر شهرة بين جموع الناس، وهذا حتى في بلدكم وفي الغرب الثري المتقدم. في أيامنا هذه الأفكار المتطرفة تكون الأكثر طلبًا، وتنتشر كالنار في الهشيم، وأعداد من يؤمنون ويتمسكون بها في تزايد مستمر. وهذا أمر مخيف بالفعل، أليس كذلك؟

- أتعرف يا أمير، سيكون مشروعي عندما أعود إلى الوطن هو تأليف كتاب وسوف أهديه إلى روح زوجتي. وسوف أحاول أن أظهر وأزيح الغبار المتراكم عن هذه الآيات والكلمات التي تضمنتها الكتب السماوية، والروايات الفلسفية الخالدة التي تؤكد على نشر روح التسامح بين الناس، بغض النظر عن طبيعة جنسهم ونوعهم أو عقيدتهم، بالإضافة إلى إبراز المخاطر التي قد تنجم عن عدم وجود الحب والتسامح وآثار ذلك على الإنسانية والعالم بأسره.

- يا إلهي، إنه حقًا مشروع كبير، أليس كذلك؟..

منذ بضعة أسابيع، كنت أساعد ابنتي - والتي تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا- في عمل واجبها المنزلي. وكان الواجب المنزلي مرتبطًا بموضوع التسامح وعدم الاعتداء. وقد قلت لها بصورة واضحة إنه من أجل أن تكوني سعيدة، يجب عليكِ

أن تسامحي الآخرين بلا شروط. ولقد أدهشتني عندما طرحت علي السؤال التالي: ألا يستطيع الله فقط أن يستبدل كل البشر الموجودين على ظهر الأرض بأشخاص آخرين يكونون أكثر طيبة ومحبة وتسامح؟ لقد استغرق الأمر مني بضعة أيام لكي أتوصل إلى إجابة مقنعة لذلك السؤال. فقلت: نعم، ولم لا؟ غير أنه بعد ذلك، تساءلت ما إذا كان الله سبحانه يستطيع فقط أن يعيد برمجة هؤلاء البشر الموجودين على ظهر الأرض، مثلما نفعل تمامًا مع أجهزة الحاسوب الخاصة بنا... أستغفر الله.

ثم أردف قائلاً وهو يبتسم على غير عادته:

- ربما قد يكون النبيذ قد بدأت تظهر آثاره وجعلني كثير الكلام، وهذا عادةً ما يناقض طبيعتي من حيث التحفظ والصمت. ولكن دعنا نفكر سويًا حول هذا الأمر: ألن يكون العالم في صورة أفضل إذا تسامح كل الناس مع بعضهم البعض؟ دعنا نتخيل أننا استيقظنا ذات صباح، لنجد أن كل ما نسمعه في الأخبار هو أن الحكومة الأسبانية سامحت العرب على غزوهم لبلادهم في القرن الثامن... وأن العرب واليهود سامحوا الأسبان على تعذيبهم لهم خلال عملية تحرير بلادهم... وأن الأفغان سامحوا كل المحتلين السابقين والحاليين لبلادهم... وأن الفرنسيين والأمريكان قدموا اعتذارهم للشعب الفيتنامي على غزوهم لبلادهم، وكذا سامحهم الفيتناميون في المقابل... وأن اليابانيين اعتذروا للصينيين على غزوهم لبلادهم

وتعذيبهم أبشع عذاب، وكذا سامحهم الصينيون في المقابل... ونجد أن العرب والإسرائيليين بدأوا صفحة جديدة من التسامح والتفاهم وقاموا ببناء علاقة أفضل تقوم على مزيد من التفاهم والثقة المتبادلة. وقام الإسرائيليون بالاعتذار للشعب الفلسطيني... وأن القبائل الهندية التي كانت تقطن شمال وجنوب أمريكا سامحت القوى الاستعمارية التي احتلت أرضهم وسلبت ثرواتهم... وأن الصربيين قد اعتذروا للبوسنيين عما فعلوه بهم، وسامحهم البوسنيون في المقابل.

- أنت تحلم يا صديقي.

ضحك أمير مرة أخرى وأكمل مازحًا:

- وأنا سامحتُ أبي على الكفِّ الذي سدده لوجهي عندما كنتُ في العاشرة من عمري لأنني كسرت فنجان الشاي... والقائمة يا "جي. آر" طويلة لا تنتهي، غير أن هذه ليست سوى نماذج قليلة حول إمكانية استخدام البشر لروح التسامح كوسيلة للمصالحة فيما بينهم جميعًا.

- هل كان الكفُّ قويًا؟ مثل كفوف أبي الميكانيكي...

طيب، اسمع مني هذه القصة: في عام ٢٠٠٦ وقفت شعوب العالم معبرة عن إعجابها بموقف "جماعة الآميش" الصغيرة الذين يقطنون في منطقة (لانكستر، بنسلفانيا)، حيث تعرضت إحدى مدارس هذه الجماعة إلى حادث مأسوي، عندما أطلق

شخص حاقد عنصري النار موديًا بحياة عشر من الفتيات داخل المدرسة. وفي وسط أحزانهم وصدمتهم على هذه الجريمة المؤلمة والدامية، لم توجه جماعة "الآميش" اللوم لأحد. وإنما في المقابل، أظهروا الحزن والرحمة نحو أسرة القاتل. وصدقني في نفس عصر يوم هذا الحادث، عبَّر جد واحدة من الفتيات اللاتي لقين حتفهن عن تسامحه وعفوه عن القاتل في مركز الشرطة.

- أيعقل هذا! كيف يمكن لمثل هذا الشيء أن يحدث في عالمنا؟

- نعم أوافقك الرأي، هذا لا يعقل. ففي عالم يعيش في حالة من الحروب وفي مجتمع غالبًا ما يوجه أصابع الاتهام واللوم للآخرين، فإن رد فعل كهذا لم يكن يُسمع عنه ولم يكن شائعًا بين الناس. وكيف يمكن لهم أن يسامحوا أو أن يغفروا القيام بمثل هذا الفعل الفظيع غير المبرر كاستخدام العنف ضد بنات بريئات؟ والإجابة هي، أنه يمكننا جميعًا أن نكون سعداء وأن نواصل حياتنا من خلال إرساء قيم الحب والتسامح غير المشروط فيما بيننا، نعم إنه صعب، وصعب للغاية. ويتطلب الكثير من الشجاعة.

ثم أضاف:

- يحضرني في هذا الصدد اقتباس قرأته يقول: "طالما أنك لا تتحلى بروح التسامح، فكل من أخطأ بحقك سيعيش معك كظلك طول حياتك، ولن تهنأ في يوم وإن ماتوا جميعًا".

- انظر يا "جي. آر" لقد أعطيتني مثالاً تقشعر له الأبدان وفي نفس الوقت مثير لمشاعر الأسى والتعاطف. فمن فضلك استمع إلى هذه القصة من جنوب إفريقيا: عندما تحرَّر السُّود من الحكم الظالم من الأقلية البيضاء، أو كما يسميهم الإعلام. لم ينتقموا قط، ولكن علَّموا العالم بأسره كيف يكون المعنى الحقيقي للمصالحة والتسامح. فهم تعاملوا مع الماضي كماضٍ وواصلوا حياتهم قدمًا وبدون أن يلتفتوا إلى الوراء أبدًا. فقد قال زعيمهم العظيم "نيلسون مانديلا": (إذا كانت هناك أحلام تراودنا عن جنوب إفريقيا الجميلة، فهناك أيضًا طُرق تؤدي إلى تحقيق تلك الأحلام. ألا وهما التسامح والغفران).
- انظر عزيزي أمير، كلانا يتفق على المبادئ التي أشرنا إليها، وأن الجزء الجيد من الأمر يتمثل في أننا لسنا بحاجة للذهاب إلى التسوق لكي نحصل على السعادة من أحد المتاجر، حيث إن السعادة والتسامح مخلوقان في داخلنا بالفطرة، وكل ما نحتاج إليه هو أن ننّقب عنهما حتى نجدهما ثم نتقاسمهما مع الآخرين ونضعهما في موضع التطبيق الحياتي واللذين خُلقا من أجله.
- أتعرف يا "جي. آر" هناك مثل شعبي عربي - أو على الأقل وفقًا لما سمعته من والدي والذي بدوره سمعه في مكة - حيث يقول: "إذا كنتَ تملك الكثير، فتصدق من ثروتك، وإذا كنت فقيرًا، فاعطِ الآخرين مما تملك في قلبك من مشاعر جميلة".

- حوارنا أصبح غاية في العمق ومثمرًا... أليس كذلك؟... هل تصدق أن جميع الدراسات الحديثة تقول إن الأشخاص الذين يتحلون بروح التسامح يكونون أكثر سعادة وصحة من أولئك الذين يحملون ضغينة واستياء تجاه الآخرين.

- نعم أصدقك ولكن دعني أسألك يا "جي. آر" ما هي فائدة المعتقدات الدينية والكتب السماوية، إذا لم نستطع أن نقدم لأنفسنا وللآخرين أهم العناصر والأدوات الضرورية التي تحفظ بقاءنا: وأعني بها الحب والتسامح؟ إن كل الأديان والمعتقدات والفلسفات الموجودة في العالم يتم كتابتها وصياغتها بصورة مقصودة لكي تساعدنا على استخراج واستنباط الخير المكنون بداخلنا.. فعلى سبيل المثال، قال الحكيم البوذي (الدلاي لاما): " إن كل العقائد الدينية السائدة تحمل بصورة أساسية نفس الرسالة السامية: ألا وهي قيم الحب والرحمة والتسامح".

اقترح "جي. آر" قائلاً:

- ما رأيك أن نطلب مشروبًا آخر وبعض الوجبات الخفيفة، حيث إنني أشعر بالنعاس، أنا أفضل ألا أنام. فما زال أمامنا بضع ساعات حتى تنتهي هذه الرحلة.

وعندها نظر "جي. آر" إلى أمير ووجد عينيه قد احمرت من كثرة التعب والإجهاد؛ وربما من كؤوس النبيذ حيث قال له:

- هل أنت متعب؟.

- لا على الإطلاق. فقد تعلمتُ واستفدتُ كثيرًا بالفعل من حواري معك. أنا حقًا في غاية السعادة لأنك ترافقني وبالقرب مني في هذه الرحلة.

- إن كل ما نناقشه الآن سوف يكون جزءًا من كتابي الذي أنوي نشره. لقد تحدثت إلى الكثير من الأشخاص في الدول الآسيوية التي زرتها وقمت بتدوين تلك المحادثات، وعندما أعود إلى الوطن، سوف أقوم بإعادة ترتيب وصياغة تلك الكتابات، وسوف أرسل لك نسخة من كتابي عندما أقوم بنشره.

- يشرفني ذلك. ولكن ألا تعتقد يا "جي. آر" أن السبب الرئيس وراء معاناتنا يكمن في غرورنا واعتقادنا بأننا قديسون، أقوياء، نتحكم بالأرض كما نشاء، وكأننا نحيا للأبد، لا نتعرض للموت والفناء، وأن كل تلك الأفكار والمعتقدات والعقائد التي نؤمن بها هي لتدمير غيرنا؟ وأن كل المخلوقات التي توجد في هذا الكون مسخرة لنا لنستخدمها ونسيء استخدامها.

- انظر، إن كل الأديان، والمعتقدات السائدة في العالم والكتب السماوية المقدسة تسير جميعًا على نفس النهج وتسلك نفس الدرب عندما نتحدث عن قيم الحب والتسامح والغفران. غير أنه تحضرني أيضًا هنا قصة عظيمة في هذا الشأن. حيث يذكر

الإنجيل قصة عن سيدة ارتكبت فاحشة الزنا. ويتدخل الرب هنا ويقول- كما يروى ذلك "لوقا" في الإصحاح ٧:٤٧ "ومن ثم فإني أخبرك، أن ذنوبها – رغم كثرتها – قد غفرتها لها جميعًا، وذلك لأن قلبها يفيض بالكثير من الحب. غير أن من يغفر له القليل من الذنوب، يوجد بقلبه القليل من الحب. ولهذا قال لها عيسى عليه السلام، "اذهبي، لقد غفر لجميع ذنوبك.

- حسنًا يا "جي. آر" لقد قرأت العهدين القديم والجديد بالكامل، وأدرك ما فعله المسيح عيسى عليه السلام خلال فترة حياته القصيرة: حيث كان يحض ويعظ الناس على التحلي بقيم الحب والتسامح. ولكن هل يتبع معظم أتباعه من الناس في أنحاء العالم تعاليم المسيح الآن؟ والإجابة بالطبع هي بالنفي.
هناك قصة أخرى أود أن أحكي لك عنها وهي عن النبي "محمد" صلى الله عليه وسلم، حيث حاربته القبائل العربية في "مكة" ومن حولها وتعرض للإيذاء والتعذيب هو وأصحابه لمدة تزيد عن العشرين عامًا. غير أنه عندما دخل "مكة" فاتحًا منتصرًا، سأل أهلها: ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ فالتمسوا منه الرحمة والغفران. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: سوف أقول لكم اليوم مثلما قال "يوسف" عليه السلام لإخوته. "لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

ثم فصَّل أكثر قائلاً:

- إن الإسلام أيضًا يعلمنا أن المسلمين لا يستطيعون أن يتوقعوا عفو الله وغفرانه إن لم نسامح نحن أولئك الذين أساؤوا إلينا وظلمونا أولا. وأن يسامح بعضنا بعضا، وحتى أن نسامح أعداءنا أيضًا، وهذا يمثل أحد أهم تعاليم الإسلام. وقد أكَّد القرآن الكريم على قيم الحب والتسامح بالنسبة لأولئك الذين يريدون أن يتعلموا مبادئ وتعاليم الله الواحد القهار. ولقد وصف الله تعالى المؤمنين في كتابه بقوله: { وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ } (الشورى:٣٧)

ومن هنا فإن الإسلام يحث على التحلي بروح التسامح ويذكر المؤمنين بفضل وثواب التسامح. وهناك آية أخرى تقول: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } (النحل: ١٢٦). صدقني يا "جي. آر" هناك الكثير من الآيات والتي للأسف غفل عنها الناس مثل تلك الآية العظيمة: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } (فصلت:٣٧).

وأيضًا في سورة الحجر { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } (الحجر:٨٥).

- إنه كلام كبير لا يصدر إلا من خالق كريم مقتدر. أقسم لك، أني عندما كنت في إندونيسيا، شعرتُ وتلمستُ حقًا روح الإسلام من خلال أخلاق ذلك الشيخ الصوفي الذي كنت أقيم معه، ولكني

لم أسمع تلك الآيات التي ذكرتها منذ قليل. والآن فقط أدركت لماذا كان يتصرف هذا الرجل وأسرته على ذلك النحو من التواضع الذي رأيته.

في الوطن أي أمريكا، لا نتعلم إلا ما يتعلق بالدين المسيحي واليهودي. وحيث إنك لديك معرفة واهتمام بالأديان، ففي اليهودية، والتي تعد أصل كل المعتقدات المتعلقة برسالة النبي "إبراهيم"، هناك آيات عظيمة من التوراة يؤمن بها المسلمون والمسيحيون حسب ما أعتقد. ففي اليهودية مثلاً، يجب أن يمنح الغفران عندما يطلبه الآخرون، وهو مبدأ تنص عليه التوراة بصورة واضحة، كما أنه يحرم أن يكون الإنسان فظًا غليظ القلب وألا يسمح لنفسه أن تركن إلى السكينة إلا إذا سامح. وعلى النقيض من ذلك، ينبغي على الإنسان أن يكون مرنًا ومتسامحًا وأن يكظم غيظه وغضبه قدر المستطاع، وعندما يطلب منه من أساء إليه أو ظلمه أن يسامحه ويعفو عنه، فينبغي عليه أن يسامح ويعفو بكامل عقله وبإخلاص تام وبروح مليئة بالرضا والتسامح. والتسامح يمثل عنصرًا طبيعيًا وأصيلاً بالنسبة لبنى إسرائيل الأولين أيام موسى عليه السلام. وفي اليهودية أيضًا، لا يمكن للشخص أن يحصل على العفو والمغفرة من الله على ما ارتكبه من ذنوب في حق الآخرين، إلا إذا اعتذر هذا الشخص بإخلاص ثلاث مرات عن الخطأ الذي ارتكبه ضد الشخص الآخر.

- تعرف يا "جي. آر" حديثي معك نعمة وفضل كبير بالنسبة لي. حيث إن عقلي العلماني ناقض قلبي المؤمن وكان قد سلك نهجا بعيدًا وبمنأى عن كل الأديان وعن الله. ولكن أتعرف؟ نعم أنا مسلم الديانة، ولكني تخرجت في مدرسة كاثوليكية. ولهذا فإنني أعرف الكثير عن المسيحية، فالحب والتسامح هما جوهر العقيدة. ونجد في إنجيل (متى) في الإصحاح ٦:١٤، آية ملهمة ينبغي أن نتعلم منها، ولا يجب أن نغفل عنها: (إذا غفرتَ للآخرين إساءتهم وظلمهم لك، فإن الله أيضًا سوف يغفر لك ذنوبك). وهناك آية أخرى تثير خلجات القلب والعقل في إنجيل (يوحنا)، الإصحاح ٤:١٨: (ليس هناك خوف يعتري الحب، وذلك لأن الحب الكامل يلفظ الخوف تمامًا من داخل القلوب. ولأن الخوف يرتبط بوجود العقاب، وأن كل من يعتريه الخوف لم يكتمل الحب الحقيقي بداخله.

- عظيم، أنت حقًا قرأت الإنجيل، أليس كذلك؟ كنت أتمنى أن تكون زوجتي المرحومة هنا برفقتنا حتى تسمعك. وأنا على يقين أنها كانت ستشعر بالفرح والسرور. أتعرف، عندما كنت أعيش في الهند، قرأت كتابين عن الفلسفات الشرقية. وكان الكتابان يؤكدان على معاني الحكمة والحب والتسامح والعفو.

ثم مدَّ يده في حقيبة اليد التي كانت تحت الكرسي الذي أمامه، وأخرج كتابا وبدأ يقرأ منه بعض المقتطفات:

- (هناك فقط عيب واحد في الأشخاص المتسامحين، وليس سواه شيء آخر، ويتمثل هذا العيب في أن الناس ينظرون للشخص المتسامح على أنه شخص ضعيف. ورغم ذلك، فإن هذا العيب لا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، حيث إن القدرة على التسامح تمثل قوة عظيمة. والتسامح يمثل أيضًا فضيلة كبرى للشخص الضعيف، وفخرًا بالنسبة للشخص القوي).

ثم أخذ نفسًا عميقًا وأكمل:

(التسامح يخضع له الجميع في هذه الحياة! ما هو الشيء الذي لا يمكن للتسامح أن يحققه؟ وما الذي يمكن أن يفعله شخص شرير حيال شخص يحمل التسامح بين يديه ليقدمه له؟..

إن النار التي تقع على الأرض الجرداء والتي لا يعلوها نبات تنطفئ بذاتها. وإن الشخص الذي يكون فظ القلب ويرفض التسامح يشوه نفسه وصورته بكثير من الصفات الشنيعة والقبيحة. التسامح يمثل صفة السلام الأعظم، والمعرفة تمثل الرضا والقناعة الأسمى، والإحسان يمثل السعادة الحقيقية الوحيدة).

وبينما هو يقرأ ؛ تمَّ الإعلان عن بدء الهبوط التدريجي.

كانت هذه الرحلة من أسرع وأمتع وأفيد الرحلات التي قام بها أمير في كل حياته المديدة. وتمنى لو كانت الرحلة امتدت أطول من ذلك، غير أنها لابد أن تصل إلى النهاية كشأن كل الأشياء في هذا العالم.

ودَّع أمير صديق السفر العابر. ولكن كلمات "جي. آر" أضافت بالفعل الكثير من المعاني والمشاعر إلى حياة أمير. وما زال يتعجب لماذا يصر الناس على حمل الكثير من الغضب والذكريات السيئة داخل قلوبهم.

وفي الرحلة الأخرى إلى كندا. أخذ أمير يتأمل ويكتب بعض النقاط والعبر والتي كان ينوي إرسالها عبر بريده الالكتروني إلى "جي. آر" وأيضًا ليشارك بها أهله.

فأول ما كتب في المذكرة التي كان يحملها دومًا معه ما يلي:

- علينا أن نتذكر شيئًا واحدًا وهو أن القلب في يد الله ومعيته. وأن الناس لا يجب عليهم أن يلوثوه أو أن يملؤه بالكراهية والغضب.
- هناك حقيقة نعيشها معشر الناس أنه من الصعب دومًا منح الحب بدون شروط، حيث أن الناس متحيزون بطبيعتهم ولا يعطون من غير مقابل. ولكننا نستطيع أن نقدم ما يكفي من التسامح في قلوبنا لكي يجعلنا نحن والآخرين سعداء. والتسامح قد يكون حتى أكثر صعوبة عندما تقدمه بشكل غير مشروط. لذلك، فكيف بنا أن نفعله؟

ثم قال يحدث نفسه بعضًا مما تعلمه في تلك الرحلة: "يجب عليَّ أن أبدًا بنفسي ولذلك يجب عليَّ التأكد قبل أن أخلد إلى النوم كل ليلة، أن أسامح أي شخص أساء إليَّ أو ظلمني في نهار ذلك

اليوم. إني أنا الأقوى حيث أن العفو والتسامح عادة ما يمنحه القوي وليس الضعيف.

ثم أخذ قيلولة ليرتاح.

وقبل الهبوط بساعة، قام المضيفون والمضيفات بتقديم طعام الإفطار. قرَّر أمير أن يستغل هذه الدقائق الباقية ليدوِّن بعض الملاحظات التي كانت تدور في خلده، فكتب على عجل:

- قد يرى البعض أنه عندما نسامح الآخرين فهذا يعني أننا نتصرف كالأطفال الضعفاء لا كالرجال الأقوياء. ولم لا؟ لم لا نكون أطفالاً مرة أخرى!.

في الحقيقة، عندما كنا أطفالاً صغارًا كنا طاهرين وقلوبنا مليئة بالخير والجمال والبراءة. وعندما نكبر قليلاً، نبدأ في عمل صداقات ونلعب في شوارع المنطقة التي نقطنها أو الساحات الخلفية لمنازلنا بكل سرور ومرح ولا نختار أبدًا أصدقاءنا على أساس اللون أو العرق أو النوع. فهم جميعًا سواء بالنسبة لنا، وهم حقًّا كذلك.

كانت قلوبنا مليئة بالحب والتسامح. وإذا أصيبت إحدى أرجلنا أو أي عضو فينا ونحن نلعب، قد نصرخ أو نبكي لبضع لحظات ثم سرعان ما نعود لنستكمل اللعب معهم وبدون أن نكِّن في صدورنا الطاهرة أي ندم أو غضب.

وأكمل يكتب:

- ذات مرة سدَّد أحد الأصدقاء ركلة قوية للكرة فحطَّم الزجاج الأمامي للدراجة البخارية الخاصة بجارنا. ولكننا لم نلذ بالفرار عندئذ. واتجهنا نحو منزله وطرقنا الباب. وفي اللحظة التي خرج فيها الجار، اعتذرنا له عما حدث وطلبنا منه العفو والسماح. وقد كان غاية في الطيبة وسامحنا على ما حدث. فالأطفال يمتلكون قدرة لا متناهية على طلب أو تقديم التسامح والعفو. وعندما كنا نسامح، فذلك عادة ما يكون بصورة كلية وغير مشروطة.

ومرة أخرى دوَّن سؤالاً مهمًا ألا وهو:

- ماذا يحدث لكل ذلك القدر من التسامح والعفو عندما نكبر ويتقدم بنا العمر؟

عندما نكبر، تبادر البيئة المحيطة بنا على الفور - الوالدان، المدرسة، دور العبادة، الأقارب والجيران - بالسيطرة علينا وعلى مداخل حياتنا. وهذا يكون عندما يبدؤون في توجيهنا وتحديد ما هو صواب وما هو خطأ، ولمن يجب أن نتحدث، ومع أي الأشخاص يجب أن نلعب. وما يجب أن نقرأه وما لا يجب أن نقرأه، ما يجب أن نقوله وما لا يجب أن نقوله. لقد حددوا لنا أيضًا من يجب أن نحب ومن يجب أن نكره ونبغض.

- وبالطبع، سوف يخبرك الكثيرون أن جنسك أو عرقك أو دينك هم الأفضل على الإطلاق، وأن الآخرين ليسوا سوى أشخاصًا عاديين بلا فائدة. وهذه هي بالضبط الطريقة التي تتشكل بها شخصيتنا التسامحية أو الديكتاتورية أو الفاشية وغيرهما.

ثم سأل نفسه مرة أخرى:

- ولكن متى نبدأ في إخفاء هذا المخزون الطبيعي من الحب والتسامح والغفران؟ ومتى تصبح الأنانية هي العامل المسيطر الذي يتحكم في سلوكنا؟

فتذكر كتابًا قد قرأه منذ وقت طويل، حيث يقول: (إن الكثير من الآباء يسعدهم رؤية أبنائهم وخاصة الذكور منهم عندما يبدأون ببناء صرامة وقوة تجاه الآخرين. من هنا تبدأ شخصية الشاب الديكتاتورية حول الكيفية التي يجب أن تكون عليها الأشياء والتي عليها أن تتطابق مع شهواته ومتطلباته. وهو ما قد يؤدي به إلى ظهور أعراض الشاب الساخط، الغاضب المتمرد على شخصه وعدم الرحمة، وهي حالة يصاب فيها الأشخاص بالإحباط عندما يصطدمون بالواقع نتيجة لعدم قدرتهم على التحكم في الأشياء التي لا يستطيع في الغالب أي بشر أن يتحكم فيها).

وهم بذلك أي الآباء إنما يزرعون البؤس في قلوب أبنائهم. وينزعون الرحمة والحب والتسامح من قلوب أبنائهم عن

قصد أو دون قصد. ولقد أثبتت جميع الدراسات أن الذين يصفحون ويسامحون الآخرين يكونون أكثر سعادة وأفضل صحة من غيرهم وذلك لأنهم أقل غرورًا، وأقل توترًا وذلك لأنهم لا يكترثون لأخطاء الماضي ولا يحملون ضغينة، ولا توجد لديهم الأحاسيس الشيطانية كالانتقام والعدوانية والقتل. وهم عادة أكثر حضورًا ومرحًا.

ثم سأل نفسه مرة أخرى:

- ولكن كيف تكون البداية؟

ثم أخذ يسّطر بعض النقاط والتي عساها أن تكون درسًا له وأيضًا البداية من أجل حياة أفضل له وأبنائه.

- أولاً: أن أتعرف على حجم الأذى وان كنت جاهزًا لأغفر وأصفح. ففي الغالب، كل ما صغر الأذى كان التسامح أسهل. وكل ما كبر الأذى يكون متأصلا في النفس، وهنا التضحية والتسامح يكونان أصعب وتكون الراحة اكبر عند الصفح.

- ثانيًا: يجب عليَّ أن أنقل مشاعري وأشارك بها الآخرين. فإذا كان بالإمكان، فسأقوم بمواجهة الشخص الذي أساء إليَّ وأحاول أن أنقل مشاعري إليه. ويمكنني أيضًا أن أفعل هذا من خلال إرسال خطاب أو بريد إلكتروني. لن أقوم بمهاجمة الشخص الأخر، ولكن سأعبر عن مشاعري فقط وأنقل لمن أساء إلي السبب وراء شعوري بالأذى أو الغضب.

- ثالثًا: سأمنح الشخص الأخر فرصة أن يشاركني رأيه أو وجهة نظره وسأستمع إليه من غير جدال ولن أكون مضطرًا للاتفاق معه حول وجهة نظره. وأخيرًا سأعيش ليومي وأدع ما حدث في الماضي يصبح من الماضي.

بعدها فقط شعر أمير بالراحة والفخر وهو يكتب ملاحظاته. وبإمكانه الآن أن يخلد إلى الراحة والنوم ولو لسويعات قليلة.

• • •

▪ **خلاصة القصة :**

لا تحمّل قلبك ما لا يطاق. بل يجب أن يكون الصفح والغفران طريقة حياة لك. ذلك لا يعني السماح للغير بالقيام بالأفعال الخاطئة، ولا يعني أيضًا تبرير الأفعال أو التقليل من شأن الخطأ الذي ارتكب، وإنما هو فقط للتخلص من الشعور بالغضب الذي ينتابك ويعيش معك كلما تعرضت للظلم، وهذا حتمًا سيمنحك القوة وراحة القلب وحياة أكثر سعادة وبهجة.

الفضائية التي أيقظت الموتى!

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

أبو القاسم الشابي

عقب انتهاء مراسم الدفن ومواراة الأب الثرى.. تفاجأ الإخوان الواحد والعشرون عندما رأوا وسمعوا ضحكات أمهم وكأنها ليست في مجلس عزاء.

سألها ابنها الأصغر:

- ألا تفتقدين أبي يا أمي؟، إن دمه لم يجف بعد ولحمه ما زال طريًّا في قبره وأنتِ تضحكين، كأن شيئًا لم يكن.

- نعم يا بني، إنني أفتقده، ولكن لِمَ كل هذا الحزن؟ لقد غادر الدنيا بلا عودة، أما نحن فمن حقنا أن نحيا. أبوك لم يهتم لأمري قط، كان كل همِّه الثروة والأرض والمال، وقد أعطيتها كلها له.

- ولكن يا أمي، كان رحمه الله يحبنا ويفضلنا حتى على نفسه. انظري إلى نفسك، أنتِ ترتدين فستانًا من الحرير الأخضر وضحكاتك تُسمع في كل أرجاء الكون.. ماذا حصل لكِ؟

... قالها ابنها الأكبر جمال، وكان الإخوة الآخرون يستمعون باندهاش والحزن يعصر قلوبهم.

- حسنًا يا أولاد، أنتم لستم صغارًا بل في عيني أسود ورجال. اسمعوا جيدًا ما سأقوله لكم: عندما أتى أبوكم غازيًا من أرض "بريتينا"، كان لا يملك شيئًا غير سيفه وسلاحه، طابت له أرضنا ودفء شمسنا فقرَّر البقاء، عمل مع والدي ووفر له الحماية، كنت حين إذن في الرابعة عشر من عمري؛ عذراء

جميلة وغنية. أغواني أبوكم بكلامه المعسول ووعوده الكاذبة فاستسلمت له، حتى فضَّ بكارتي. وما كان لي من سبيل لحفظ شرفي وماء وجهي إلا الزواج منه. وافق أبي على مضض رغم اعتراض كل كبار القبيلة لأنه رجل غريب، أبيض لا دين له إلا حب المال والجاه والسلطة. وعندما مات أبي في ظروف غامضة؛ تغيَّر أبوكم تغييرًا جذريًا، أجبرني على كتابة توكيل عام له لإدارة الأموال والأراضي الشاسعة، قال إنني صغيرة وغبية وإنه وحده القادر على حمايتي وحماية ممتلكاتي.

ثم استرخت أكثر على كرسيها الهزاز وأخذت رشفة من فنجان القهوة العربية بنكهة الزعفران الإيراني والهيل الهندي، ثم تنهدت وقالت بحسرة:

- أجبرني ذلك الخسيس أبوكم أن أكون حُبلى طوال الأربعين سنة الماضية، وهكذا أنجبتكم جميعًا. لا أتذكر يومًا لم أكن فيه حبلى بأحدكم.. الآن، كل تلك السنين جعلتها ورائي وسأستمتع بما تبقى من عمري؛ رضيتم أم أبيتم.

وعندما حاول أحد الأبناء التعقيب على كلامها، أمرته بالصمت، وقالت:

- بالمناسبة، لقد اتصلتُ بالمحامي وسيكون هنا غدًا الساعة الخامسة عصرًا لقراءة وصية أبيكم. أتوقع حضوركم عند أو قبل هذا التوقيت.

انفض الاجتماع وذهب الأولاد إلى حيث يعيشون مطأطي الرؤوس كلٌّ إلى بيته.

عندما حان الوقت في اليوم التالي، حضر الجميع وجلسوا كلاً في المكان المخصص له، الأخ الكبير جلس على يسار أمه، وتلاه الأصغر فالأصغر. أو كما كانوا يفعلون أيام والدهم المتوفى.

وعندما بدأ المحامي بقراءة الوصية، بدأت وجوههم بالتغير؛ فمنهم الفرحان ومنهم الغضبان ومنهم من خاب ظنه. أما الأم فقد خاب ظنها كثيرًا لأنها لم تُذكر البتة في الوصية، لكنها بدت وكأنها غير مهتمة ورضت بالحرية التي اكتسبتها بوفاة زوجها. الأموال قُسمت بالتساوي بين الأبناء، ولكن الأراضي قُسمت بشكل عشوائي وظالم للبعض، البعض حصل على أراضٍ صحراوية واسعة بدون ماء، والبعض حصل على أراضٍ صغيرة ولكنها زراعية ووفيرة الماء، وآخرون حصلوا على أراضٍ جبلية. والجدير بالذكر، أن بعض الأراضي كانت مزدحمة بالناس وأخرى بالكاد يعيش عليها أحد.

وقبل انفضاض الاجتماع وزَّع عليهم المحامي أحد الشروط التي وضعها أبوهم المتوفى والتي عليهم المصادقة عليها قبل استلام الإرث. يقول ذلك الشرط ما يلي:

(قد تمتلكون الأرض، ولكن ليس بإمكانكم امتلاك الناس التي عليها. للناس كل الحق في مالهم وعرضهم وحريتهم، وأن يحصلوا على الغذاء والتعليم وحرية اختيار ممثليهم في مجالس الأراضي وإدارة شؤونهم كيفما شاءوا.

بالرغم من عدم الرضا الذي أبداه الكثير منهم، لكن لم يكن بمقدورهم فعل أي شيء، فالوصية يجب أن تُطبق حرفيًا.

لم يمَّر شهر واحد من وفاة والدهم واستلامهم عهدة الأراضي حتى نشبت الخلافات بين الإخوة، خاصة عند البدء بوضع العلامات الحدودية بين الأراضي.

العلاقات الأخوية التي جمعتهم ذات يوم بدأت بالتفكك. وما هي إلا سنين قليلة حتى أخذ القوي يتغلب على الضعيف ليسلبه أرضه وموارده، وسادت الخيانة والتآمر فيما بينهم.

وبمرور الوقت تحول الإخوة إلى ديكتاتورات وهيمنوا واستغلوا البشر والشجر والحجر والنهر والبحر وكل ما على وتحت الأرض، وأعلنوا للناس أجمعين أنهم الأقوى وأصحاب الرؤية والبصيرة الثاقبة وما دونهم إنما رعاع جهله يُقتادوا ويؤمروا وعليهم السمع والطاعة فقط لا غير، واتخذوا أموال الناس بالباطل لهم ولذويهم ولمن حولهم من البطانة الفاسدة.

من جهة أخرى، ازداد شعور الناس بالظلم، والجوع، والمرض، والعبودية، حيث لا يُسمح لهم بالتعبير عن آرائهم أو اختيار ممثليهم. كان طريقهم الوحيد ليعلموا أخبار أرضهم أو الأراضي الأخرى عبر الإذاعات الحرة الخارجية، كان عندهم بعض من الإعلام ولكنه كان رتيبًا ومملاً وكل مواده الإعلامية موجهة نحو تمجيد وتقديس إقطاعيّ الأراضي والتهليل لهم.

الإحباط والتململ بدأ يظهر بين أكثر الناس من سكان تلك الأراضي. أخذ القليل من المثقفين والأدباء الأحرار يتساءلون متى سينقشع الظلام؟ متى سنرى النور؟ متى سنحظى بالعدالة والحرية؟... وبالرغم من كل الإحباط كانت المعنويات والآمال كبيرة بين تلك الفئة من الناس، وخاصة الشباب منهم، أما الأغلبية الصامتة فكانت خانعة، خاضعة لا حول لها ولا قوة.

وخلال تلك السنوات الطوال من حكم الإخوة الإقطاعيين ملاك الأراضي، كان هناك بعض الإضرابات والتظاهرات من وقت لأخر يقوم بها المتعلمون والمزارعون الضعفاء، ولكنها كانت تُقمع من بداياتها.

الأغلبية من الناس لم يحركوا ساكنًا حيث كانوا في كفاح مستمر لتعليم أبنائهم ووضع بعض الطعام في أفواه أبنائهم، وأيضًا لخوفهم من الأجهزة القمعية كالمباحث والشرطة والجيش، والتي كانت عديمة الرحمة، وتمَّ إنشاؤها لهذا الغرض فقط.

ولنكن هنا أكثر واقعية، ليس الكل بذاك السوء، البعض منهم كانوا رحماء، كرماء، بارين بأهل الأرض وطبَّقوا وصية أبيهم نوعًا ما، واعتبروا أنفسهم ولاة أمر يحكمون بما يشتهي أهل الأرض.

بالطبع، هذا الظلم من الإخوة - والذي تمتعوا بتطبيقه وبكل الأشكال- لا يمكن أن يدوم الدهر كله. والسقوط حتمًا سيبدأ آجلاً أم عاجلاً.

وفي إحدى الليالي تناقلت جميع وسائل الإعلام خبر سقوط أحد الإخوة الإقطاعيين عندما ثار عليه أهل الأرض بأكمله، الرجال والنساء، الشيب والشباب، الحداد والنجار، الطبيب والمهندس، الكل ثار كالبركان. وبعدها بأشهر بدأ سقوط بعض الإخوة الآخرين الواحد تلو الأخر كأحجار الدومينو.

بدأ الناس يتنفسون الحرية منطلقين في كل الاتجاهات بلا دليل مثل الطيور التي أُخرجت للتو من أقفاصها. طبعًا لن يحس الناس بلذة الحرية فورًا لأنهم كانوا في أقفاص ينطقون ما ينطق به سيدهم وراضين بالفتات الذي يلقى لهم.. ستظل شعوب تلك الأراضي التي تحرَّرت تحت قيود الماضي لبعض الوقت، وفي النهاية سيستمتعون بلذتها تمامًا كالذي كان يحمل حملاً ثقيلاً على ظهره، ثم ألقى الحمل على الأرض، فإذ أثر الحمل باقٍ على ظهره لبعض الوقت.

وطبعًا هناك الكثير من العوامل التي سرَّعت في سقوطهم. أولها الإرادة الإلهية (يمهل ولا يهمل)، والفقر، والبطالة، والخيانة، والفساد، وعدم الولاء، والثورة المعلوماتية والإعلام الفضائي.

ولكن البداية الحقيقية لقصة السقوط العظيم للإخوة الظالمين قد بدأت بالواقع منذ عشر سنوات ونيف.

كيف؟

حدث ذات مرة أن دخل المدير التنفيذي على سيده مالك إحدى أصغر الأراضي قائلاً:

- لقد غُزينا يا سيدي! هناك غزو على بلادنا عند الحدود من بعض القبائل الموالية لأخيك الأكبر، صاحب الأرض الكبرى.

انتفض مالك الأرض من مكانه وتحقق من الأمر وطالب باجتماع طارئ لمجلس الأرض المعين وأيضًا مع حراس الأرض. وخلال هذا الاجتماع الكل أدلى بدلوه إلا المدير التنفيذي حيث ظل صامتًا يدّون الملاحظات ويكاد أن ينفجر من الغضب، ووجهه مسود باحمرار ككبد الإبل ويده ترجف كالزنبرك لم يرفع عينيه الحمراوين الدامعتين.

وعندما نظر صاحب الأرض سائلاً المدير التنفيذي:

- هل لديك أي اقتراح؟

وقف ونظر بحدة إلى الكل ثم توجه إلى صاحب الأرض وهمس بأذنه قائلاً:

- أريد أن أتحدث إليك على انفراد يا سيدي!

ثم هرع إلى الخارج مسرعًا وهو يزبد ويتمتم من شدة الغضب.

بعد ساعة بالتمام والكمال اتصل صاحب الأرض بالمدير التنفيذي وطلب الاجتماع به وبأقصى سرعة. اجتمع الاثنان في قصر مزرعة الخيول، وعندها سأل المدير التنفيذي سيده صاحب الأرض:

- منذ متى وأنت تعرفني؟

- لا أتذكر، ولكنها مدة طويلة، حتى قبل أن أرث الأرض من أبي ومن عليها.

- وهل تثق بي؟

- بالطبع.. أنت واحد من رجالي المخلصين، وابن عمي، ومستشاري الخاص.

- إذن يا سيدي دعني أتكلم بكل صراحة، لم يعجبني البتة ما قد سمعته في ذلك الاجتماع.

قالها بحزن وأسى ثم أكمل حديثه:

- كيف يمكن لهم أن ينصحوك بأن تحشد رجالك وتبدأ حرب لاسترداد الأرض التي اقتطعت؟ كيف تجرأوا وقالوا: استدعِ قوات أجنبية؟ كيف لهم أن ينصحوك بأن تقطع علاقاتك مع أخيك الأكبر؟ أنا بكل صراحة لا استسيغ ولا أوافق على أي من هذا الطرح وأعتبره انتحارًا غير مبرر.

- ولم لا.؟ أليس لدينا الحق في الدفاع عن أنفسنا. أليس لدينا أصدقاء يفزعون لنا عند الشدائد. ولم لا؟ هيا اخبرني!

... قالها صاحب الأرض بغضب وهو ينظر في عيون المدير التنفيذي.

- سيدي هذا بالنسبة لي هو الانتحار عينه. أنت تعلم مدى قوة هذه القبائل وقوة أخيك الأكبر. لو حاربنا سيكونون في قصرك خلال ساعات، ولو استدعينا قوات خارجية سنعود إلى الاستعمار الذي كان عليه أبوك من جديد ولكن بقيود أكبر عن الاستعمار السابق.

- إذًا ماذا تقترح أن نعمل في هذا الظرف الاستثنائي؟

- حسنًا، قبل أن أجيب أريد فقط إخبارك أن لا أحد من إخوانك استنكر هذا العمل. وهذا يعني أنها مؤامرة لإضعافك أو أننا لا نعني شيئًا لهم.

صمت المدير التنفيذي لفترة وجيزة ثم فتح إحدى العلب التي كانت على الطاولة وأخرج منها سيجارًا كوبيًا من النوع الفاخر ثم طلب من سكرتيره الشخصي أن يأتيه بفنجان من القهوة التركية. وأخذ ينفث الدخان من السيجار على شكل دوائر متراصة إلى الأعلى. ثم قال:

- سيدي، يجب علينا أن نستفيد من هذه الكارثة أو الحدث الجلل كما سميته أنت، ونحوله إلى رمز لبقائنا وتقدمنا وازدهار أرضنا.

- والله حيَّرتني. اليوم نحن تحت وطأة هذه المأساة وأنت تتكلم عن التطور والازدهار. لا أرى أي علاقة هنا على الإطلاق.
- سيدي. أنت قلت في بداية حديثنا إنك تثق بي، أقسم لك إن عندي خطة؛ خطة ممتازة ستسهم بشكل كبير أولاً لرد اعتبارك أنت شخصيًا واعتبار ناسك اللذين يقطنون الأرض، وثانيًا ستجعل إخوانك يتهافتون عليك طلبًا لرضاك، وثالثًا ستكون في موضع قوة عندما تذهب لتتفاوض على الحدود مع أخيك الأكبر وباقي إخوتك.
- والله شوقتني، وأنا متحمس لسماع ما عندك.

أخذ المدير التنفيذي مفكرته وبدأ يقرأ منها...

- سيدي. الخطة كتبتها على عجل وتتكون من خمس نقاط وأسميتها (خطة إنقاذ الأرض ورد الاعتبار). ولكن بالطبع ستأخذ بعض الوقت للتطبيق، وكل ما علينا هو العمل ثم الصبر والصبر والصبر.

- أولاً: في العلاقات العامة، سنعمل على كتابة نشيد وطني يتغنى ويفتخر به جميع سكان أرضك. سينشد هذا النشيد في المدارس والمصانع وفي المناسبات الرياضية والاجتماعية. وأيضًا هناك برنامج آخر وهو أن على سكان أرضك إبداء المحبة لك شخصيًا. وستقوم أنت بجدولة زيارات وخطابات أسبوعية وشهرية في جميع أنحاء أرضك حتى نطمئن أن الناس معنا ومن يثبت عليه غير ذلك يُطرد من الأرض.

- ثانيًا: في الشؤون العسكرية والعلاقات الدولية، سنوقع معاهدات حماية دولية وسندعو إحدى الدول الكبرى لعمل قاعدة على أرضنا تحت شروطنا وأن تكون الأرض مؤجرة لا مباعة وهذا سيعطي دخلاً إضافيًا وسيردع من يفكر في إيذائنا مرة أخرى.
- ثالثًا: في الشأن الإعلامي، سنتبنى سياسات تعتمد على حرية الإعلام وسنقوم بإنشاء المحطات الفضائية والتي بدورها ستقوم بنشر جميع أخبار الأراضي لكل الناس الذين يقطنون فوقها، وستكون صوت من لا صوت له. وسندعو جميع معارضي إخوانك للمشاركة وإبداء رأيهم ونقل أفكارهم إلى الناس، أي سنعريهم ونكشف حقيقتهم أمام الناس.
- رابعًا: في الشأن الاقتصادي، سنفتح الأبواب لجميع مستثمري العالم وفي كل المجالات كالسياحة والصناعة وغيرها. وسنعامل المستثمر كمواطن له كل الحقوق.
- خامسًا: في الشأن الداخلي، سنتبنى نوعًا جديدًا من الإدارة وسنستفتي الناس على دستور جديد يسمح بالانتخابات الحرة وحرية التعبير وما إلى ذلك، وسنتبنى نظام الفيزا المفتوح حيث سنسمح لكل شعوب العالم بالدخول والاستمتاع بما أنعم الله علينا من شواطئ ومن جمال أرضنا ودفء سمائنا.

أما قضية الحدود وتداخل أرضنا مع أراضي إخوانك فسنحاول حلها وديًا. وإذا استعصى الأمر سنعرضها على التحكيم العام وهم يقومون بواجبهم.

قام صاحب الأرض ومشى بضع خطوات نحو نافذة الشرفة، وأخذ ينظر إلي مصدر شغفه وحبه، إلى تلك المجموعة من الخيول العربية الأصيلة الرائعة وهي تجوب ذلك السهل الأخضر والذي قد سقي للتو من ماء البحر المحلى.

استغرق الكثير من الوقت وهو يتأمل. ثم التفت وهو يصفق والابتسامة تعلو وجنتيه:

- رائع، مدهش، عظيم. والله لقد أرحتني أراحك الله. إنها فعلاً خطة طموحة وأفضل بكثير مما كنت أفكر فيه.

ثم عاد إلى كرسيه الوثير وعقَّب:

- كم من الوقت تحتاج لتعطيني الخطة التفصيلية والجدول الزمني؟

تحمس المدير التنفيذي وبدا على وجهه البهجة والسرور وزأر مختالاً كالأسد:

- من ثلاثة إلى ستة أشهر.. ولكن أنت تعرف أن الكثير من المحيطين بك لا يطيقون رؤيتي لذلك أحتاج دعمك المطلق سيدي.

- لك دعمي المطلق. توكل على الله وعسى الباري أن يوفقك ويسدد خطاك.

بالضبط، أي بعد ستة شهور عرض خطته على مجلس الأرض والذي بدوره وافق عليها بالأغلبية وحولها لصاحب الأرض لاعتمادها.

حرية الإعلام والتوجه إلى البث الفضائي كان من الأولويات والتي يجب تطبيقها على الفور، والغريب أن وضع الدستور الجديد والانتخابات كانت أخر الأولويات بالخطة التي وضعها المدير التنفيذي.

بعد ثلاثة أشهر من اعتماد الخطة بدأت المحطة الفضائية بثها حيث أسماها صاحب الأرض "الكبيرة". ومن الأسبوع الأول استحوذت على كل جماهير الأراضي واللذين كانوا يتسمرون أمام التلفاز ليل نهار. وفعلاً كانت كما قال المدير التنفيذي صوت من لا ينطق، وأذن من لا يسمع. وهذا بالفعل ما اعتقده جميع من شاهدها.

بدأت القناة بالبرامج الحوارية وعلى الهواء مباشرة، ذلك غير البرامج الإخبارية. كان كل معارض أو سليط لسان أو جماعة معارضة لحكم ملاك الأراضي الإقطاعيين تتاح لهم الفرصة لنقل وجهة نظرهم من غير رقيب أو حسيب. حيث قامت "الكبيرة"

بتعرية ملاك الأراضي وكشف ظلمهم وسياساتهم الخاطئة نحو قاطني الأراضي.

ومع مرور الوقت شعر ملاك الأراضي بعدم الرضا مما تبثه هذه القناة وحتى الأراضي الغربية والشمالية والشرقية والجنوبية والتي تتصف بالحرية لم يعجبها ذلك. انهالت الاحتجاجات والتهديدات من كل حدب وصوب وقام بعض من الإخوة ملاك الأراضي بقطع العلاقات مع أرض الأخ الأصغر.

لا يوجد من ينكر دور هذه القناة الفضائية وأثرها على الثورات التي أطاحت ببعض الإخوة من ملاك الأراضي. لقد خلقت قناة "الكبيرة" نوعًا من الوعي الثقافي والسياسي للناس القاطنين في تلك الأراضي الشاسعة الواسعة. كانت كالمرايا التي تعكس هموم الناس وأمانيهم وتعبر عن مشاعرهم.

أصبحت قناة "الكبيرة" وبغضون سنوات قليلة واحدة من أهم القنوات الإخبارية الأكثر تأثيرًا في الأراضي، وأصبح الناس يهجرون تلك المحطات الرسمية الرتيبة، المملة التي أنشأها ملاك الأراضي والذي كان شغلها الشاغل تمجيدهم وتقديسهم.

توافدت الوفود من الأراضي لهذه الأرض الصغيرة لإقناعهم بعدم التدخل في شؤونهم الداخلية ولكن من غير جدوى. وهُددت هذه الأرض الصغيرة من إخوتها الكبار ووصفت بأقبح الأوصاف كالعمالة والخيانة. ولكن لا يصح إلا الصحيح، والحق باقٍ إلى يوم الدين.

كان هذا كله بفضل شجاعة المدير التنفيذي والخطة التي اقترحها لرد اعتبار تلك الأرض الصغيرة. وأيضًا كان له الفضل في تجنيب الأرض من مخاطر الانجرار إلى الحرب، وكذلك المساهمة في إشعال روح التغير عند الناس وإفاقتهم من السبات الأزلي الذي انتابهم من عقود.

• • •

▪ **خلاصة القصة :**

لا تجزع أبدًا مهما كبرت مصيبتك، بل سيّرها لصالحك. ولا تكن عبدًا ذليلاً وتوكل على الله، فمن كان عبدًا لله وحده، كان حُرًّا. ومن منا لا ينشد الحرية، أو كما يُقال الحرية كالذهب.. ولا أحد يكره الذهب.. ولا أحد يكره الحرية التي لا يجب أن تتعدى على حرية الآخرين مهما اختلفوا معك.

الهروب إلى الصحراء

إنني أستطيع أن أعطيك قلبي، فأصبح عاشقًا ...
أعطيك طعامي، فأصبح جائعًا ...
أعطيك ثروتي، فأصبح فقيرًا ...
أعطيك عمري، فأصبح ذكرى.
ولكنني لا أستطيع أن أعطيك حريتي.
إن حريتي هي دمي، هي عقلي، هي خبز حياتي

محمود عوض

كان زكريا في العقد الثالث من عمرة، معروف في كل الحارة بطيبته وجماله وخفة دمه. عاش زكريا يتيمًا وحيدًا مع أمه التي حرصت على تعليمه في أفضل المدارس. تميَّز بالذكاء والنباهة وسعة الأفق وكان ملتزمًا بأمور دينه ولكن ليس لحد التزمت.

عمل في شركة نفط بالقرب من منطقة الأحمدي. وكانت له صداقات كثيرة مع جيرانه وحتى مع عمال النظافة. كان محبوبًا في مقر عمله وعلى علاقة خاصة مع رئيسه الأمريكي المسيحي الإنجيلي الذي كان يعتبره من الكفاءات النادرة والتي لها مستقبل باهر. وكان هذا الرئيس قد أشرف على تدريبه وتعليمة الكثير من مهارات وأسرار الجيولوجيا الحفرية.

في أحد الأيام دخل على أمه وجلس على الكرسي المقابل لها في صالة الجلوس شاحب الوجه، خائف ويتمتم ببعض الكلمات. وضعت أمه يدها على رأسه لاشتباهها بإصابته بالحمى أو من ضيق التنفس نتيجة للربو الذي عانى منه منذ طفولته، ثم سألته:

- ما بك يا بني؟

- لا شيء، لا شيء يا أمي. ولكنهم اختطفوا ديني ومعتقدي، لقد اختطفوا الإسلام يا أمي!

- من فعل كل هذا؟ تكلم...أخبرني..لقد أقلقتني.

- المتطرفون، الإرهابيون يا أمي، لقد اختطفوه وشوهوه.

- اهدأ، تمهل قليلاً واشرح لي! وبهدوء من فضلك.

- المتطرفون المسلمون يا أمي. إن الذين فجَّروا المركز المالي في نيويورك مسلمون ويقولون إنه واجب ديني، بل من أصول الدين. كيف يكون هذا؟ ديني دين الفطرة، دين البشرية والمحبة والسلام؛ كيف استطاعوا أن يسخروه لأهوائهم ويستغلونه لمآربهم السياسية ويجعلون دين التوحيد أداة للقتل والدمار؟

- خذ نفسًا وتكلم بهدوء لأنني لم أفهم شيئًا مما قلت.

أخذ يعيد ما قاله متمتمًا.. ثم فجأة صمت وأخذ ينظر لما هو حوله ويتمتم:

- كل مجرمي الدنيا ومخططي الحروب يبررون فعلهم إما بادعائهم بتفوق عرقهم، أو لكسب مال أو احتلال أرض أو سياسة أو ما شابه ذلك، ولكن لماذا يزجون بديني في أعمالهم الشيطانية وكأنهم أوصياء على المليارين من المسلمين على ظهر الأرض، لِمَ قالوا إنه كتاب الله الذي أمرهم بذلك؟. من هم حتى يفسروا ويؤولوا القران لمصالحهم الشخصية؟، وفوق ذلك يقولون إن الحور العين وأنهار الجنة في انتظارهم... معاذ الله من قولهم.

- ما هذا الذي تتمتم به يا بني؟

- لا شيء يا أمي.

أم زكريا كانت تعاني من الهوس القهري، والذي تسبب بإبعاد الناس عنها. لذلك لم تسمع أو تقرأ عما يتحدث عنه ابنها. فالتزمت الصمت ولم تبدي أي مشاعر بل قالت له:

- دعك من هذا. اذهب واغتسل وتعال لتناول الغداء معي.

وضعت هجمات ١١ سبتمبر أيلول على الولايات المتحدة إيمان زكريا بالله وبدينه على المحك. وبسبب قربه من رئيسه بالعمل، أخذ يتردد على زيارته والتي استغلها ذلك المبشر ليقنع زكريا بأن الله هو الحب ولا يمكن أن يسمح بشيء كهذا. وأن هذا الدين - يقصد الإسلام - إنما هو دين عنف ونشأ بالعنف، لا بالتبشير والكلمة الحسنة.

وفي نهاية المطاف، وبسبب الصداقة الوطيدة التي تربطه مع رئيسه بدأ زكريا يتقبل ما يمليه عليه رئيسه. وما هي إلا أيام حتى بشره رئيسه بالأخبار الجيدة حيث تمت ترقيته مع زيادة معتبرة في راتبه، وأيضًا أهداه حقيبة تحوي بعض الهدايا وطبعًا العهد الجديد من الكتاب المقدس والمعتمد عند المسيحيين الإنجيليين.

تقبل زكريا الهدية بامتنان وأخذ كذلك في قراءة كتاب العهد الجديد حرفيًا، متعمقًا ومتأملاً بكل صفحة من صفحاته، حتى حفظه كما حفظ القرآن الكريم قبل ذلك.

لقد أُعجب بمعجزات السيد المسيح، والمحبة والسلام اللذين بشَّر بها. وأكثر ما أعجبه هو قول السيد المسيح: "أن تحب عدوك كما تحب نفسك وأن تصفح عمن أساء إليك".
ولكنه وبحكم تربيته الإسلامية لم يتقبل أن يكون الله ثالث ثلاثة - الأب والابن والروح القدس-. ورغم قناعته بسماحه الدين المسيحي إلا انه أكمل بحثه عن السلام الذي كان يتوق إليه من خلال قرائته للأديان والمعتقدات الكونية الأخرى.

وبعد أن غزت الولايات المتحدة الأمريكية العراق أرض أخواله وفعلوا ما قد فعلوا باسم السيد المسيح. بدأ يتساءل عن جدوى الأديان السماوية واقتنع يقينًا أن جُلَّ متبعيها ما هم إلا مجرمين وهم عادة من يبدأ الحرب؛ بل ويستمتعون بالقتل والتعذيب والتنكيل.. المتطرفون المسلمون يقتلون باسم الله جل جلاله، والمسيحيون واليهود يقتلون باسم موسى وعيسى وادعائهم بأنهم شعب الله المختار.

فرمى بالإنجيل في أحد أدراجه؛ كما فعل بالقرآن الكريم سابقًا. وأكمل بحثه عن السلام والذي هو كل ما ينشد، تعرَّف على الفلسفات الشرقية كالبوذية والطاوية وأعجب بما تحمله من سلام وتأمل وراحة بال. ولكن كلما تعمق بها أكثر وجد أنها ليست واقعية وتحوي الكثير من الخرافات والأساطير البدائية البالية والتي لا يتحملها عقل الإنسان المعاصر.

وبعدها أخذ يدرس الفلسفات والتوجهات المعاصرة والتي تركزت في معظمها على الإنسان نفسه وأنه القادر على التمييز بين الحق والباطل، الشر والخير، وأن جميع من في الكون من بشر وشجر وحجر؛ وُجدوا أصلاً بالصدفة المحضة ونتاج للتطور النوعي.

وبينما هو كذلك، صادف أن التقى بأحد الأطباء البريطانيين والذي قد عالجه ذات مرة من قرحة القولون، وكان ممتنًا له كثيرًا، وبينما هم يتبادلون أطراف الحديث اقترح عليه الطبيب قراءة بعض الكتب ودعاه إلى بيته لإعارته بعض الكتب الإنسانية الإلحادية.

بعد قراءة بعض من هذه الكتب التي اقترحها الطبيب الملحد انقلبت حياة زكريا رأسًا على عقب. اعتقد للوهلة أنه كان يعيش في جهل وظلام دامس وأن الإنسان منافق يستغل وجود الله لصالحه ولكسب أمواله والتعيش منه فقط لا غير، وأنه كان واحدًا منهم عندما كان على دربهم.

وقفت امرأته والتي تزوجها حديثًا معه بكل طاقتها بل شجعته وساندته.. كانت هي أيضًا عربية من بلاد الشام، حيث لم تجد في أفكاره الجديدة ما هو منافٍ لاعتقادات وفلسفات أبيها التي كانت تحبه وتجله والذي كان عضوًا بأحد الأحزاب اليسارية.

ساعد كل منهما الآخر، وأخذا يسافران كثيرًا وخاصة إلى فرنسا مهد العلمانية، حيث وجدا ضالتهما هناك، وكانوا يلتقون بأناس يؤمنون بنفس الفلسفات والأفكار الإلحادية وخاصة فكر الإنسانيات والذي تبلور ونشأ في أوروبا في أوائل القرن العشرين.

بدأت مشاكلهما عندما همست زوجته لإحدى صديقاتها من الجيران عن قناعاتها وقناعات زوجها، إلا أن همسها وثرثرتها انتشرت في كل أرجاء الحي. وحيث أن الحي الذي يقطنون به هو حي تقليدي مترابط والكل تقريبًا يؤدون الصلوات في المساجد؛ أخذا يتعرضان للكثير من المضايقات رغم محاولاتهما المتعددة لتغطية ما يستطيعان تغطيته.

زكريا عانى كثيرًا والضغوطات كانت تنصب عليه من كل الاتجاهات رغم محاولات زوجته بالتخفيف عنه وقولها المتكرر له: "عادي، لا تهتم ولا تحمل هما...هؤلاء قوم متخلفون!"

حتى أصحابه بالعمل أصبحوا يضايقونه ولا يعيرون له وزنًا، مما اضطره للاستقالة من عملة على ألا يغير المنهاج الذي اختاره لنفسه وبإرادته. ورغم ذلك بدأ يعاني من القلق والكآبة مما جعله يفكر بالانتحار. وكان دائمًا يسأل نفسه ويحدثها:
"هل الخطأ فيَّ أو في هذا العالم؟ لماذا لا يتركونا وشأننا؟ ماذا باستطاعتنا أن نفعل؟ إذا غادرنا هذا البلد! هل سأعثر على

وظيفة؟ وأين سأجد بلدًا يستضيفنا للعيش فيه؟ وهل سنكون أكثر سعادة؟... ثم فكَّر، هذا هو بلدي أيضًا! وهم لا يستطيعون أخذه مني! لماذا أهجره؟ لماذا أترك الأمر لهم؟"

زوجته كانت تعرفه جيدًا وتعرف كل خفاياه؛ لأنها كانت سكرتيرته قبل الزواج؛ تعرف ماذا يحب وماذا يكره، إن كان سعيدًا أو حزينًا، وتعلم أيضًا أنه جبان ويتهرب من المسؤولية عندما تشتد الأمور عليه.

وذات يوم قرَّرت النظر مباشره إلى عينيه ومصارحته وقول ما اعتقدت أنه الصواب. ثم استجمعت قواها وقالت:

- اسمع يا زكريا! أنت تحب الصحراء وتحب التخييم في أم القرنين. هناك سترتاح وستفكر بوضوح وأريحية. صدقني إنك سترتاح من القيل والقال، ومن هذا التلوث والزحام، ومن أصوات المكيفات المنفرة والمذياع والتلفاز.

كان يود أن يقول لها: أنتِ السبب في كل ما نعانيه. ولكنه فضَّل الصمت.

ثم طلبت منه أن يتصل بصديق الدراسة سالم والذي كان بمثابة الأخ له. اقتنع زكريا بفكرة زوجته واتصل بسالم والذي بدوره كان مرحبًا كالعادة. بل شجع زكريا على التخييم معه

- تعال يا أخي، الجو هنا سيزيدك خبالاً على خبلك، وجنونًا فوق جنونك. الأرض خضراء مكسوة بالورد الأبيض والأصفر.

ولكن لا تنس البطانيات وبشت صوف الإبل لأن برد الليل هنا قارص. ولا تنس مظله المطر لأنه لم يتوقف منذ يومين. أراك عما قريب يا غريب.

صديقه سالم ينتمي إلى أسرة عربية بدوية كريمة، وعنده قطيع من الإبل والغنم. لا يؤمن ولا يحبذ إضاعة الوقت مع التلفاز والجرائد والإنترنت، غير أنه يملك مذياعًا ورثه عن أبيه ومازال يعمل. مع العلم أن سالم مثقف ومتعلم وحاصل على البكالوريوس في إدارة الأعمال. كان يعمل في وظيفة ممتازة، ولكن بعد وفاة أبيه قرَّر هو وزوجته نورة العيش حيث كان يعيش والده، وأن يهتم بقطعان أبيه من الإبل والغنم.

آخر مرة زاره فيها، كان سالم يُرْضِع حوارًا صغيرًا من رضاعة كان قد اشتراها من السوق. سالم يحب قطعانه حتى النخاع لأنهم يذكرونه بوالديه وبطفولته السعيدة. وقد تعلم منذ الصغر كيف يطعمهم ويحميهم ويحلبهم ويجز صوفهم.

تذكر زكريا كلام سالم عندما قال له ذات مرة: "أنا أُرْضع وأهتم بهذا الصغير منذ إن ولد، حيث إن أمه بكرة ولا تدر حليبا يكفيه. ولكن الحقيقة إن كل ما تراه من صغار الإبل والغنم هم أبنائي، أمرض عندما يمرضون، وأفرح عندما أراهم يسرحون ويمرحون في الصحراء".

في هذه المرة قرَّر زكريا أن ينصب خيمته بعيدًا نوعا ما عن مخيم سالم حتى لا يزعجه أو يزعج قطعانه من ضجيج موتور الكهرباء الصغير الذي قد يحتاج إليه لشحن جواله أو استخدام الإنترنت.

سالم وزوجته نورة يتصفان بالكرم والجود كأغلبية البدو. وعندما يأتيان لزيارته كانا يجلبان معهم حليب الإبل، والتمر والقهوة الشقراء المنكهة بالهيل والقرنفل. وفي بعض الأحيان كان زكريا يرافق سالم لرعي قطعانه وسوقهم نحو بئر الماء والذي يبعد سبعة كيلومترات من مقر المخيم. وأحيانًا أخرى يرافقه بالاند كروزر للذهاب إلى إحدى القرى المجاورة للتسوق.

وفي كل ليلة، كان زكريا يستلقي على الأرض وينظر إلى السماء ويتفكر بتلك الملايين من النجوم. وكان سالم يزوره بين الحين والآخر وكان يعلِّمه أسماء تلك النجوم، والبدو بطبيعتهم متبحرون بعلم مواقع النجوم وأسمائها.

كانت تغمره أحاسيس السعادة والسلام كلما نظر إلى جمال الصحراء وهدوء المكان بالليل، حيث أن الصوت الوحيد الذي كان يسمعه إما أن يكون نميم الجرابيع وهي تجري بين العشب وأشجار العرفج هاربة من ثعالب الصحراء الصغيرة ذات الآذان الكبيرة، أو عويل الذئاب العربية الخجولة من بعيد، أو نباح كلاب السلق، ولكنها كانت كسيمفونيات بيتهوفن على قلبه

وسمعه. بالنسبة لزكريا أسبوع من التخييم في الصحراء خيرٌ له من شهر في أرقى فنادق العالم.

كان زكريا يرى العالم بأسره وهو مستلقيًا على ظهره. حيث كان يتذكر طفولته ويتمه، شبابه وسعادته، أمه وأبيه، أصدقاءه ومدرسته، حبه الأول وحبه الأخير، وكل ما مرَّ عليه من شقاء وبهجة.

في بعض الأوقات كان يتوق لأن يقف ويصرخ بأعلى صوت: "أنا حر، لا دخل لأحد بي" ليخرج الهم والغم من صدره.

وتذكر كيف مضت تلك السنين بلذتها وكيف إن الليالي الجميلة لا تبقى طويلاً وأن الذكريات الحلوة والقبيحة سيان لا يبقيان. وأن الدنيا زائلة لا محالة، فلم الكبت والحرمان؟.

وفي إحدى تلك الليالي الجميلة، بدأ يتأمل ويتفكر أكثر، وقال في نفسه:

- إن جميع المفكرين والفلاسفة والشعراء القدماء يجب أن يكونوا قد عاشوا بالصحراء واستلهموا منها أفكارهم. فأنا مثلاً لم أسمع بنبي أتى من غابة أو ما شابهها. إن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين رأوا العالم وكل الكون من خلال سماء الصحراء الصافية والتي أشعلت مشاعرهم ووسعت آفاقهم وزرعت الحكمة في أفئدتهم.

وفكَّر أيضًا:

- بما إن الكون بهذه الضخامة والنجوم والكواكب يسْبحُون فيه حول بعضهم بانتظام وحساب فيجب أن يكون هناك خالق قدير يُسيّر أمور الكون حيثما يشاء! يجب أن يكون هناك من هو أكبر من الكون! وهذا حتمًا هو الله الذي أوجد الكمال وقانون الطبيعة والمادة التي خلق منها كل شيء. لا يمكن أن يكون هذا الكون وعظمته وُجدا بالصدفة، وما هي الصُدف؟ لا يوجد هناك صُدف بل أقدار. وإذا كان هنالك خالق فلعله أيضًا خلق العدالة والسلام في نفوس خلقه، ولكن ماذا جرى؟ ماذا حدث؟ ليكون الإنسان شريرًا ومسيطرًا ويستمتع بعذابات غيره. أين ذهبت الرحمة؟ وأين ذهبت الحكمة؟ هل الشيطان هو من سلبها ونزعها نزعًا من قلوبنا؟

إن الأرض تحوي أنواعًا كثيرة من الحياة، كما يقول علماء الطبيعة، نوع يعيش على التمثيل الضوئي والأكسجين كالإنسان والشجر والحيوان ومعظم الأسماك. ونوع يعيش على كبريتيد الهيدروجين والميثان في أعماق المحيطات؛ وهي كائنات عجيبة مثيرة مثل الديدان الأنبوبية الضخمة، والأصداف والحلزون البحري، وبعض من أنواع الحبار والإخطبوط وسرطانات البحر وغيرها. وهناك أيضًا من يعيش على الميثان وحده. وطبعًا عالم الأرواح غير المرئي. فالسؤال الذي يطرح نفسه إذا الأرض تحوى كل تلك التشكيلة من الحياة، فلم لا تكون هناك حياة في كواكب أعماق الكون؟

رغم كل الظروف والتحولات التي مرَّ بها. إلا أن بضعة من الإيمان ما زالت في قلبه ولكنه كان يكابر ويقنع نفسه أن لا جدوى من الأديان. لأن جميع هذه الأديان فشلت لأنها لم تستطع أعمار الحب والسلام في القلوب والأفئدة، وأصبح متبعوها يتفننون في الخطابة التي توجه للجماهير لتعزيز الكره والقتل وتكفير الغير. ما جدوى الأديان إذا لم تستطع نزع الشيطان من القلب وغرس الحب مكانه؟ وهل هناك من فكر بديل يحوي كل معاني السلام والمحبة؟ حتمًا هناك، ولكن ليس على كوكبنا!.

وفيما هو كذلك في تأملاته شعر بالرجفة من شدة البرد الذي أخذ يتغلغل داخل عظامه، فأشعل نارًا مما تبقى من الفحم ومن بعض أعواد شجر العرفج الجافة والتي قد جمعها عند الظهيرة.

أحسَّ زكريا بعدها براحة ما بعدها راحة عندما غمره الدفء. حيث قام من مكانه بكل هدوء وسكينه متوجهًا إلى خيمته لجلب بعض القهوة. وإذا هو يقول لا إراديًا وهو يمشي:

- نعم هناك حتمًا مكان للسلام والحب. إنه بالتقرب إليك ربي؛ لا لعبيدك الضالين. إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، أشهد أنك الحق والسلام، أشهد أنك الحب الذي لا يفنى. الآن فقط أمنتُ بك من كل قلبي وجوارحي؛ وليس كما ورثته من أهلي ومدرستي وناسي. سبحانك ما أجملك وأجمل رحمتك، ولا أنشد إلا رضاك. إن غفرت لي فأنا عبدك، وإن لم تغفر فأنا عبدك. أشكرك أنك أتيت بي إلا هذا المكان.

عاد من خيمته وهو يكرِّر الشهادة التي نسيها لوقت طويل والدموع تنهمر من عينيه. وضع إبريق القهوة على النار وبقي هناك متسمرًا بلا حراك. وإذا بذلك الشيء الذي أخذ يلعق وجهه، صرخ واستلقى من شدة الخوف وهو يلوح بيديه.

وعندها سمع قهقهات وضحكات سالم وهو يقول:

- لا تخف إنه كلبي السلق.
- لقد أفزعتني يا رجل، والله لم أشعر بقدومك إلا وكلبك اللعين يلعق وجهي، لقد تسمرت رجلي ولم أستطع الحراك.
- فكرت أنك قد تكون وحيدًا وتحتاج بعض الرفقة، لذا جلبتُ لك عشاء يحبه قلبك من أختك نورة.
- والله إنك تعيش في نعمه يا سالم، كل شيء- ما شاء الله- جميل هنا. كنت أتأمل في الكون وفي حياتي، وأبشرك، وجدتُ وآمنت بخالقي.
- كيف يا زكريا؟ ألم تكن مؤمنًا؟ والله ما خبرتك إلا على الصلاة والصيام!
- كان هذا في السابق، لقد هجرت كل هذا وتعلمت الكثير في هجرتي، لقد بدأت هجرتي -أو قد تقول انحرافي- عندما أصبح المسلم قاتلاً، وعندما أرى المسلم يجز الرقاب على التلفاز جزًا بدون أي رحمه أو شفقه. لقد سئمت ذلك كله. تعلمنا أن الكفار هم من يعمل ذلك، ولكننا أصبحنا أسوأ منهم بمراحل. كل ما أستطيع قوله الآن هو: اللهم عفوك ورحمتك.

- يا أخي دعك من هذه الأفكار. انظر إلي يا أخي واعتبر مني، أنا لا أسمع لهؤلاء المتطرفين ولا إلى ترهاتهم، ولا أملك تلفازًا حتى لا أراهم أو أسمع فتواهم. ولكني أعيش في سلام مع ربي ولم أتساءل عن وجوده قط ولم أترك صلاتي منذ أن كنت صغيرًا. نعم أنت على حق، فالمسلمون منقسمون، وللأسف ما بين مؤول ومتزمت ومتنطع ويفسرون آياته جل وعلا لمآربهم. وتذكر أن الكثير من الناس شياطين أو قرناء للشياطين ولكن بثياب مختلفة. القرآن لم ينزل من السماء ليعلمنا السياسة البغيضة ولا الاقتصاد ولا كيف نلبس أو نأكل. القرآن نزل لتوحيد الله وعبادته وحده.

- كلامك حق، لقد كرهونا حتى في ديننا، حملوه ما لا يحتمل وركزوا على الملبس والمظهر والمرأة ونسوا جوهره.

- نصيحتي لك يا أبو يحيى، أن تتذكر أن السعادة والسلام لا يأتيان من غير إيمان، ولا إيمان من غير صلاة، ولا صلاة من غير طهارة. قم يا أخي وتوضأ ولنريح أنفسنا بصلاة العشاء. ولتؤمنا كما كنت تؤمنا في الجامعة.

إن تلك الأيام القليلة التي قضاها في هدوء الصحراء جلبت لقلبه السكينة وزال ذلك التوتر والهم الذي كان كالجبل الجاثم على صدره.

عاد زكريا من رحلته ولكنه بالكاد يخرج من بيته، فقد بنى لنفسه مسجدًا صغيرًا داخل بيته يتعبد ويتهجد فيه. حاول العودة إلى المجتمع الذي عاش به طوال عمره ولم يستطع. فكَّر أن يفعل كما فعل سالم والذهاب للعيش في الصحراء ولكنه حتمًا سيفشل لأنه بكل بساطة ابن المدينة الهين اللين، والصحراء تريد رجالاً ذوي عزم وتحمل.

قرأ زكريا ذات يوم إعلانًا في إحدى الجرائد عن فتح باب الهجرة إلى كندا، فعزم على ذلك على مضض، حيث باع بيته وكل أمتعته وهاجر مع زوجته الحامل إلى هناك.

آخر ما سُمع عنه... أنه يدرس في إحدى الجامعات علوم الجيولوجيا.

• • •

▪ **خلاصة القصة :**

لا تيأس من رحمة الله. فلا سعادة من غير إيمان، ولا إيمان من غير صلاة، ولا صلاة من غير طهارة. فطهر قلبك قبل بدنك، وتذكر قوله تعالى: { إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }.

المؤمنة و الملحد

انتبه لأفكارك، لأنها قد تصبح كلماتك.

انتبه لكلماتك، لأنها قد تصبح أفعالك.

وانتبه لأفعالك، لأنها قد تصبح عاداتك.

وانتبه لعاداتك، لأنها قد تصبح شخصيتك.

وانتبه لشخصيتك، لأنها قد تصبح مصيرك..

لاو تسى - فيلسوف صيني

تبدأ أحداث القصة عندما التقى سامي مع صديق طفولته راشد والذي لم يراه منذ أن كانوا في المرحلة الثانوية، والذي اعتاد أن يدعوه بـ"الفيلسوف" والبعض من عيال الحارة يلقبونه بالوسواس. وبعد أن تبادلا التحيات، سرعان ما لاحظ سامي التغيرات التي حدثت له وطريقة كلامه وفكرة المشاكس، حيث كان يتحدث ويتصرف بصورة أكثر غرابةً حتى مما كان عليه عندما كان شابًا. راشد اعتاد أن يكون دائمًا بمفرده يعكف على القراءة بدرجة كبيرة ويشكك في كل شيء من حوله.

وبينما كانا يتبادلان أطراف الحديث أمام أحد البنوك المحلية دعاه سامي لزيارة منزله.

وذات يوم وبينما كان سامي يستعد لأخذ حمام ساخن بعد عودته من تمرينه اليومي، أتى إليه ابنه وقال :

- صديقك راشد عند الباب.

- حسنًا، دعة يتفضل بالدخول. وقدم له بعض الشاي. وسوف أنضم إليه خلال دقائق قليلة.

عندما كان سامي نازلاً إلى الطابق السفلى، كان راشد يحتسي كوبًا من الشاي الدافئ الخالي من السكر. بادره سامي بالتحية وجلس على الأريكة المقابلة له.

- كيف تسير الأمور معك؟ تبدو أنيقًا وسعيدًا! ولكن كيف عثرت على منزلي؟ لقد نسيت أن أسجل رقم هاتفك حينما التقينا عند بوابة البنك ذلك اليوم.

- بالصدفة، لقد كنت أزور أخي وفي طريقي لاحظت سيارتك القديمة من طراز -الشفرليت ١٩٨٥- ولهذا اعتقدت أن هذا لابد وأن يكون منزلك.

- أهلاً وسهلاً بك. يا لها من مفاجأة سعيدة. فلقد ذكرت اسمك لابنة عمى هدى. وقد أخبرتها أنك تؤمن بالمذهب الإنساني وأنك أصبحت تقريبًا ملحد. وعلى فكرة، إنها تحاضر في كلية المجتمع، وهي متخصصة في الأدب الإسلامي. وهي مهتمةٌ جدًا بلقائك ومناقشة بعض القضايا الفكرية معك.

- يا لك من ثرثار، إنك لا تحتفظ أبدًا بسر مثلما كنت دائمًا. لا أنسى كيف وشيت بي عندما كنا في الإعدادي، ولكني سأكون في غاية السعادة وأتشرف بمقابلتها. وعلى فكرة من قال لك إني ملحد. أنا فقط أتحرى وأبحث عن الحقيقة في جميع الكتب والفلسفات، هل من خطأ في ذلك؟ حتى الله سبحانه وتعالى قال: { لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } أكثر من مرة في القرآن.

- لا أبدًا، هذا من حقك . ولكني أريدك أن تجتمع مع ابنة عمي عسى أن تستفيد من علمها.

رتَّب سامي لهذا اللقاء في منزله، حيث كان يدرك أن النقاش أو المناظرة ستكون حادة ومشتعلة ولا يمكن أن تتم في مكان عام. وكان يدرك أيضًا إلى أي مدى يمكن أن تكون عليه هدى وذلك لشراسة طرحها وعدم تسامحها وخاصة عندما يتعلق الأمر بالدين. إنها تعتقد أنها الشخص الأكثر صلاحًا في هذا العالم.

وبينما كان الضيوف يجلسون في أماكنهم، وقبل أن تقوم زوجة سامي بتقديم القهوة، نظرت هدى إلى راشد وقالت له مباشرة:

- حسنًا ، لقد سمعت أنك أصبحت كافرًا. أو هكذا ما يُشاع عنك.

شعر سامي بالخجل عند سماع هذه العبارة.

أجابها راشد قائلاً:

- معذرة! فأنا لست متأكدًا إنني سمعت ما قلتيه جيدًا.

- بل سمعتني جيدًا.

- لقد حكمتِ علي للتو بعقوبة الإعدام. فطبقًا لتعاليم دينكم، من المفترض أن يُقتل جميع الكفار. ويمكنك أن تصححين ما أقول إذا كنتُ مخطئًا. ولماذا نعتِني بالكفر وأنا لم أتفوه بكلمة حتى الآن.

ثم توقف راشد قليلاً قبل أن يواصل كلامه:

- انظري، كل من هو موجود على ظهر هذه الأرض يعد كافرًا؛ حيث أن المسيحيين يرون أن اليهود والمسلمين والهندوس

وكل أصحاب الأديان الأخرى كفارًا، لأنهم لا يؤمنون بالدين المسيحي. واليهود ينظرون إلى غيرهم على أنهم كفار. وأنتِ أيضًا تعتقدين أن الآخرين جميعًا كفار بالنسبة لكِ؛ لأنهم لا يؤمنون بعقيدتك. وهكذا أستطيع أن أؤكد لكِ أن العالم برمته كفار. ولكن من فضلك، هدئي من روعك. إنني أودُّ أن أُجرى مناقشة عقلانية ومنطقية معكِ بدلاً من أن يَسُبَ كلٌ منا الأخر. رجاءً لا تخوضي هذا النقاش وأنتِ تحملين سوء القصد. فكل ما أريد من هذا النقاش هو أن نتعلم ونستفيد من بعضنا البعض. ربما أكون مخطئًا، ويحتمل أن تكوني أنتِ على صواب. ويُحتمل حتى أن يكون العكس هو الصحيح.

كان الموقف يبدو محتدمًا للغاية منذ البداية ولذلك تدخل سامي قائلاً:

- هيا يا أصحاب، ها هو الشاي والقهوة وأشهى الفطائر والفاكهة تنتظركم على الطاولة. تفضلوا بتناول ما تحبون. فلدينا المساء بأكمله لكي نتحدث فيه كما نشاء.

وبعد تناول المقبلات المصحوبة بالقليل من الضحكات وبعض الابتسامات المريبة من كلٍ من هدى وزوجة سامي، قام الجميع بالجلوس مرة أخرى.

أخذ راشد زمام الأمور وواصل كلامه قائلاً:

- اسمحي لي أن أسألكِ عن شيء واحد يا هدى. إذا كانت تعاليم الإسلام كاملة ومثالية للغاية؛ فلماذا يهرول الجميع من شباب ومفكرين نحو الدراسة أو الهجرة والعيش في الغرب؟ فهذه؛ رغم كل شيء؛ أرض الملحدين أو الكفار كما تدعونهم، أو كما وصفتِني أنتِ بذلك منذ لحظات.

- حسنًا، ذلك يرجع إلى أن تعاليم الإسلام السمحة لا تطبقها السلطات الحاكمة في بلاد الإسلام. فالإسلام ينادي بالعدالة وحرية الفكر في إطار الشريعة الإسلامية. والإسلام هو أول دين ألغى وقضى على العبودية ومنح حق الميراث وحرية الاختيار للمرأة. فالمسلمون الأوائل حتى في أوقات الصراعات والنزاعات لم يتعرضوا بالأذى لذبابة أو قطعوا شجرة . إن أكثر من هاجر إلى الغرب أنما ذهبوا ليبحثوا عن الرزق والثروة وليس الهروب من بلاد الإسلام. ها أنت تعيش كالملك ولم يحاسبك أحد على فكرك الضال.

ثم تنهدت وأكملت بحماسة:

- إن الإسلام ينادي بالرعاية والرفق بالمحتاجين والجيران والمرضى. الإسلام يدعو إلى وحدانية الله -الإله الحق- وليس الأصنام المزيفة أو الرموز المعبودة في الكثير من البلاد. نحن المسلمون لا نؤمن بالخرافات، والسحرة وأعمال الشر. وقد جاء ديننا كرسالة للبشرية جمعاء ليصحح التأويلات

والتفسيرات المغلوطة للكتب السماوية التي أنزلها الله قبل الإسلام لليهود والنصارى. ألا تخشى الله يا راشد؟ ألم تقرأ القرآن الكريم؟ إنني أنصحك بأن تعاود قراءته، ستجد فيه الجواب الشافي الكافي بإذن الله.

ثم فتحت القرآن الذي تحمله دائمًا معها وقرأت قوله تعالى:
{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً . بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً}(سورة النساء١٣٧-١٣٩)

ومما أدهش سامي أن راشد كان يستمع بتمعن لما تقوله هدى. وكان يوجه دومًا نظره إلى الأرض.

واصلت هدى كلامها:

- يا راشد إنك أكبر سنًا مني، حيث أنني اعتقدت أنك أكثر ذكاءً، والله لا أعرف ما هو شعوري نحوك. تتهافتون إلى أعداء الأمة وتقتبسون أفكارهم الهدامة وتجحدون ما أتى به نبي الخليقة وإله الخلق من خيرٍ للإنسان.

- إذا كانت الأديان تملك كل هذه الصفات والخصائص، فلماذا لا أستطيع أن أجد دولة واحدة تطبق التعاليم الحقيقة للإسلام؟ وأين تلك الأنظمة القضائية العادلة، والانتخابات الحرة النزيهة وحرية التعبير؟

- عن أي البلدان تتحدث؟ حاول أن تحدد أكثر.
- حسنًا، كل البلاد الإسلامية بلا استثناء إلا ما رحم ربك. حيث يعيش الناس تحت الظلم في جُلّ تلك البلاد. فلا يكاد يمر يوم واحد إلا ونسمع عن حالات إعدام ورجم وقطع الأيادي والأرجل، أو تلك الأفعال الأخرى التي كانت منتشرة في عصور ما قبل التاريخ.
- ولكن هذه العقوبات للمجرمين ومهربي المخدرات والعاهرات والذين يسعون في الأرض فسادًا وينشرون رذائل الأخلاق.
- دعيني أكمل كلامي من فضلك. فأنا لم أقاطعك، لقد طَبّقت حركة "طالبان" مبادئ الشريعة الإسلامية الخالصة، أو كما ادعوا، فمنعوا الفتيات من الذهاب إلى المدارس والقيام بالرقص خلال الاحتفالات والمناسبات حتى لا يفقدوا عذريتهم. وقاموا بتحطيم محطات التلفاز، واستخدموا النوادي الرياضية لتنفيذ أحكام الإعدام والرجم. ماذا تريدين مني أن أقول أيضًا؟ كل رجل يمشى في الشارع يجب أن يكون ملتحيًا. وما علاقة إطلاق اللحية بالدين؟ عن أي حرية وعدالة تتكلمين؟ هيا كوني جادةً يا هدى!
- هذه كلها ليست سوى دعاية غربية. والإسلام ليس له علاقة بها على الإطلاق. لقد اختارت حركة "طالبان" بعض الأحكام من القرآن الكريم والحديث النبوي بما يتناسب مع طريقة

حكمهم. إن آيات القرآن الكريم مليئة بالحب، والرحمة والتسامح والحكمة. ولكنهم تجاهلوها عمدًا أو جهلاً.

ثم رفع راشد يده ليُعلِق على كلامها، ولكن هدى واصلت كلامها بإصرار:

- نعم، هناك أشخاص في كل عقيدة يتصفون بالجهل، والقسوة والتطرف في الفكر. إنهم يعتقدون أنهم يخدمون عقيدتهم بصورة أفضل. ولكن صدقني إن رحمة الله تسبق عقابه وغضبه. والله أكثر رحمة وعطفًا بعباده مما يمكن أن تفعل الأم مع أولادها. فقد خلق الإنسان ضعيفًا. والله يعلم، ونحن يجب أن نعلم أن كل ابن آدم خطاء. وليس هناك أحد كامل.

ثم أمسكت مرة أخرى بالقرآن الكريم وقرأت: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (سورة الزمر: الآية ٥٣)

كما أود منك أن تستمع أيضًا إلى الحديث القدسي على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم): { يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة }.

واصلت كلامها بعزيمة وتصميم:

إنني أعتقد أنك ينبغي أن تتوب وترجع عن أفكارك الشيطانية وأن تطلب من الله الصفح والمغفرة، لقد عرفت بعض المعلومات عن أفكارك. مع أي نوع من الأديان أنت تتبع؟ إنك في حالة تشوش تام، يا راشد. أخبرني من فضلك، ما الذي تؤمن به؟

- إن ما أؤمن به ليس ديانة معينة. بل نسق من الأفكار التي تتعلق بالإنسان وقيمه، وقدراته واستحقاقاته. إن ما أؤمن به من فكر يهتم باحتياجات الإنسان ومصالحه ورفاهيته. إنه فكر يتماشى مع عصرنا هذا.

ثم استغرق راشد بضع لحظات ليبحث عن شيء في حاسوبه المحمول وبدأ يقرأ جزءًا من مقال بعنوان المذهب الإنساني والنهضة: (المذهب الإنساني يمثل حركة ثقافية وفكرية تتعلق بالنهضة التي تؤكد على الاعتبارات العلمانية كنتيجة لإعادة اكتشاف ودراسة الأدب والفن والحضارات).

ثم واصل كلامه قائلاً:

- إنني أعتقد أننا نعيش في القرن الحادي والعشرين. ألم تسمعي عن الثورات في مجال الاتصالات، والإعلام وعلوم الأرض والفضاء والطب والنقل؟ وهناك أيضًا ثورة بل طفرة في العقل البشري. البشر الآن أصبحوا ناضجين، ومتعلمين ويتمتعون بالحكمة الكافية التي تمكنهم من إدارة شؤون

حياتهم. إننا لا نحتاج إلى إرشاد من رجال الدين أو غيرهم. إن أفكاري الإنسانية تدعو إلى إتاحة الحرية للجميع، وتبني الديمقراطية كمنهاج حياة وإحياء التفكير النقدي،وأيضًا العمل على محاربة الجوع والمرض، وحماية البيئة، ونشر العدالة والمساواة. لا أن نقضي جُلَّ وقتنا بتفسير الأحلام والجن والسحر ووجهه المرأة وكأن العالم في وادٍ ونحن في واد.

أخذته الحماسة واتبع يقول:

- اخبريني يا هدى، لماذا يحتاج الإنسان المعاصر إلى دين؟ ألا يستطيع أن يدير شؤون حياته اليومية بدون مواعظ وسطوة الشيوخ؟ وإذا كان كل شيء قد قدَّره الله، فلماذا إذًا يعاقبني على أفعالي؟

- عجبًا والله، سكتَ دهرًا ونطقتَ كفرًا. لقد تغيرت تمامًا بالفعل من رأسك حتى أخمص قدميك! إنك تصنع الكثير من الأخطاء في المناقشة التي تدور بيننا يا رجل. إن أفعالك مكتوبة ومعروفة من قبل الخالق جلَّ وعلا، وأنت لست مجبرًا على القيام بها. إن إرادتك الحرة هي التي تقودك نحو الخطيئة. ولنفترض أنك تعلم أنابنتك سوف ترتكب الفاحشة، ثم فعلتْ ذلك حقًا. نعم، يمكنك أن تتوقع هذا السلوك منها، ولكنك لم تجبرها على فعل ذلك. هل توافقني في ذلك؟ ومن ناحية أخرى، إنك تسأل عن الحرية المطلقة. إنك تريد أن تختار كل

شيء بما في ذلك طول قامتك ونوعك. إننا نعتقد نحن المؤمنون بأن تلك الأشياء تخص الله القهار. إنك تملك كل الاختيارات مثل ما إذا كنت تود أن تتصدق من مالك أم لا، أو أن تكذب أو تقول الحقيقة، أن تقتل أو أن تنقذ حياة. وهناك أشياء لا نستطيع التحكم فيها. وهي تشمل نبضات قلبك، وقدرتك على التنفس وما إلى ذلك.

ثم نظرت إليه وكأنها كانت تود الحديث بصورة أكثر تفصيلاً:

- هل تستطيع أن تخبرني عن الفارق بين الأيدي التي تهتز بسبب مرض الرعشة وبين الأيدي التي تهتز بسبب الكتابة مثلاً؟ الأيدي الأولى مجبورة على الحركة نتيجة للمرض، في حين أن الثانية تهتز من خلال حركة مقصودة. ونحن من خلال الحرية التي نملكها، نستطيع أن نرتكب الذنوب، ولكننا لا نستطيع أن نُغيِّر إرادة الله. فالله منحنا تلك الحرية برغبته لكي نستخدمها بطريقة تُرضيه وترضينا. قد تكون أنت في هذا الطريق والبعيد عن الإيمان لحكمة يعلمها الخالق ثم ليهديك كما هدى غيرك من المتجبرين والملحدين، والله أعلم.

صدقني كل اللذين ساروا على دربك تابوا عندما حلَّت عليهم المصائب أو عندما اقترب أجلهم. أنصحك بالتوبة وجعل القرآن رفيقك. وأنت الرابح.

- طيب، وماذا عن إجبار الناس على الإيمان بمعتقداتكم؟ ألا يملك الناس حرية الإرادة لإتباع ما يرونه مناسبًا لهم؟

- مرة أخرى، أود أن أطلب منك أن تقرأ القرآن الكريم. فستجد علاجًا لهلوستك. من قال إننا نجبر الناس على تغيير معتقداتهم؟ نحن دعاة للخير فقط لا غير.

ثم أخذت هدى نفسًا عميقًا وتعوذت من الشيطانَ وقالت:

- بما أنك تتظاهر بالذكاء والعناد، فإنني سوف استشهد فقط بالقرآن الكريم، حيث قال الله تعالى: { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } (سورة البقرة، الآية ٢٥٦). وقال سبحانه أيضًا: { وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } (سورة يونس، الآية:٩٩).

- أشهد أن لديكِ الكثير من العلم والمعرفة عن عقيدتك، وأُقِر بأنك مدافعة عظيمة عن الدين. ولكن هناك سوء تفاهم في الأمر هنا. أنا لست هنا الآن لكي أغيِّر رأيكِ أو أهديكِ إلى عقيدة معينة. كما إنني لن أسمح لك بتغيير المبادئ أو الفلسفة أو الأفكار التي أتمسك بها. إن ما ذكرتِ من آيات لهي حق، ولكن من يسمع ومن يطبق. إنني أعرف أنكِ ذكية، ومثقفة، وتؤمنين بالقيم والاحتياجات الإنسانية. لقد شعرتُ بإحباط شديد عندما وجدتُ أن مجتمعاتنا تتجاهل مثل هذه القيم.

- لو قرأتَ القرآن وتأملت فيه لوجدت الكثير من الأجوبة التي تنشدها.

- ولكن دعيني أيضًا أسألكِ لماذا تُعامل النساء على أنهن مواطنات من الدرجة الثانية؟ فعلى سبيل المثال، لماذا تحتاج المرأة لزوج، أو ولد أو أخ ليسمح لها بالسفر؟ أتعرفين لماذا؟ ذلك لأن تلك السلطات الدينية لا تنظر إليكِ على أنكِ كائن كامل يملك حرية الإرادة. إنك مجرد شيء بالنسبة لهم! وأيضًا هل تعلمين لماذا أمروكِ أن تغطي نفسك من الرأس حتى أصابع القدمين بعباءة سوداء؟ فبالنسبة لهم، أنتِ لستِ سوى شيء جنسي بلا كرامة أو وسيلة للتعبير أو الدفاع عن نفسك.

هنا همست زوجة سامي في أذن هدى:

- حقير أليس كذلك؟. إنك تضيعين وقتك معه.

أجابتها هدى بهمس:

- لا عليكِ، لقد تعاملتُ مع أمثاله، إنه يناور فقط لا غير.

ثم نظرتْ إلى راشد وقالت:

- لا تناور من فضلك، هذا ليس بموضوعنا، بل الإيمان بالله هو موضوعنا.

- أنا لا أناور، أما عن الإيمان فأنتِ لا تعلمين ما في قلبي. أنا فقط أطرح عليكِ أسئلة دائمًا ما حيرتني. إلا وهي كيف حولتم هذا الدين من رفاهٍ وعز للإنسانية إلى استعباد؟. كيف جعلتم

الحرية الفكرية النقدية والديمقراطية وحقوق الإنسان أعداء للشريعة. فهل توافقين على أن تلك الأطروحات ضرورية وهامة من أجل تحقيق التنمية الحقيقة والرفاهية للجنس البشري؟ هل تتفقين معي على ذلك؟.

أجابت هدى بدهشة تامة قائلة:

- حسنًا، أنا لست سعيدة بما ذكرته توًا. أنا أسألك عن الإيمان وأنت تناور. كل تلك الأمور قد نتفق أو نختلف عليها. ولكني سأجيب، كيف تكون تلك الأطروحات مخالفة للشريعة. وما تلك الحريات المطلقة التي تتحدث عنها. إنني أعتقد أنك ستكون أكثر سعادة عندما تراني أو ابنتك أو أختك شبه عاريات نرقص مع المدمنين والمخمورين في نوادي الرقص ونحتسي الخمر باسم حقوق الإنسان. ورغم ذلك، فإني أتفق معك فيما يتعلق بمسألة الحرية التي لا تهين كرامة الإنسان وخاصة النساء، وطبعًا العدالة والشورى والفرص المتساوية بين الجنسين. كما لاحظت أن بعض توجهاتك وأطروحتك منصبة حول السياسة المبطنة بالإلحاد، وكأنك تقول إن الدين والإيمان أعداء للإنسان.

- لا...أبدًا أنا لم أقل هذا. بل أقول إن البعض من يدعون التدين، جعلوا من الدين سلعه وليس طريقة حياة وسعادة لمن شاء.

كل ما أسمعه هو العذاب والنار وتقييد الإنسان بقيود لم ينزل الله بها من سلطان.

- أكاد أن أجزم يا راشد أنك لستَ سعيدًا بفكرك هذا. كن متفائلاً فالخير والصلاح آتٍ، والأمل موجود والرحمة لكل الوجود فما عليك إلى أن تطلبها بقلب خاشع.

- ومن قال لك إني لست سعيدًا، لقد استثمرتُ الكثير من وقتي حتى أصفي بالي وأختار أفكاري، وأرمي النار والعذاب خلفي.

همست زوجة سامي مرة أخرى:

- ألم أقل لكِ إنه حقير وعنيد. هل سمعتِ ما قال للتو؟.

تجاهلتها هدى وأكملت:

- أقسم أنك ستعود، ما هي إلا رحلة بحث ومغامرة تعيشها. ولكنك حتمًا ستعود إلى منبع الحب والسعادة إلى الله والقرآن. ستذكرني عندما تبكي فرحًا وعندما تجد الحب الإيماني الحق. وتذكر قوله تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً }.

قاطع سامي الحوار قائلاً:

- يبدو أنكم أيها الأصحاب أصبحتم في هدنة. أنا في الواقع كنتُ مستعدًا بمطفأة الحريق إذا لزم الأمر ذلك! ولكن حان الوقت لتناول العشاء، وإن شاء الله سنلتقي مرة أخرى لنكمل. لقد

أحسستُ أنه لقاء مثمر حتى وإن لم يُقنع أحدكما الآخر. هذه هي الحياة من أبد الآبدين، فكرٌ، وفكرٌ مضاد، وعلينا أن نختار الأصلح.

قاطعه راشد:

- انتظرا لحظة، فأنا لم أنتهي من كلامي بعد. في الواقع أنا لدي بعض المقالات وبعض الكتب في سيارتي أودُّ أن أعطيها لكليكما من أجل الإطلاع والقراءة. وآمل أن تنال إعجابكما.

ردَّت هدى قائلة:

- أنا لن أقرأها حتى يعدني راشد بأن يعيد النظر في موقفه من الإيمان بالله وأن يقرأ القرآن الكريم بعقل متفتح ... الله يهدينا ويهديه وكل الحاضرين... آمين.

• • •

▪ خلاصة القصة :

جد نفسك أولاً لتجد خالقك. ولا تيأس ولا تستكين، بل واصل بحثك في كل العلوم علك تجد ما يشفي غليلك أو تجد طريقك الذي طالما بحثت عنه.

شبح تايلاند

لقد أصبح الشيطان أكثر حكمة الآن من الماضي،
حيث يغوي البشر ليجعلهم أغنياء، وليس ليجعلهم فقراء.

ألكسندر بوب

- ما شاء الله عليك، كل الفحوصات تمام التمام، فحوصات المخ والأعصاب ممتازة بالنسبة لعمرك.

- ولكن ما تفسيرك لتلك الأحلام والكوابيس التي تنتابني بين الحين والأخر..

- يا سيد داوود لو كانت تلك الكوابيس والأوهام تأتيك وأنت مستيقظ لوجدنا المشكلة ولوصفنا لك العلاج، ولكن كلها تأتيك وأنت نائم، قد تكون من الإرهاق أو الإدمان على المنبهات أو المخدرات أو حتى من نوعية الأكل التي تتناولها.

- أنت يا دكتور من أفضل الأخصائيين النفسيين وليس باستطاعتك تشخيص حالتي. من يستطيع إذن؟ المشكلة أن ما أراه في منامي يبدو وكأنه حقيقة، بالواقع أعيش معه.

- مثل ماذا؟ هل بإمكانك أن تروي لي أسوأها بالتفاصيل المملة علني أستطيع تقويم حالتك.

- يا دكتوري العزيز اسمع مني هذه القصة:

في الثالث من مارس من عام ١٩٩٩. كان يومًا جميلاً من أيام فصل الربيع خلال أحد العطلات على جزيرة (بوكت) في تايلاند.استيقظتْ زوجتي قرابة الساعة التاسعة صباحًا، ثم توجهتْ نحو الستائر فأسدلتها جانبًا،وفتحتْ الباب الزجاجي، ثم اتصلتْ بخدمة الغرف لتطلب الإفطار. استيقظتُ أنا بعدها

بعشر دقائق حيث كان ضوء الشمس يملأ جنبات الغرفة بأشعتها الذهبية التي كانت تنساب كالحرير، ثم سألتُ زوجتي ما إذا كانت مستعدة لنمشي سويًا حيث يوجد مطعم المنتجع لتناول وجبة الإفطار... ردّت قائلة:

- لقد طلبتُ وجبة الإفطار من خدمة الغرف بالفندق. الجو حقًا غاية في الروعة بالخارج، فالبحر في غاية الهدوء ويتجلى بلونه التركوازي المدهش، انهض من الفراش والقي نظرةً على طيور النورس، فهناك عدد هائل منها فوق البحر. وشاهد كيف يتلألأ ريشها الأبيض مثل لؤلؤ الخليج، ولعلمك لقد أعددت منضدة ومقعدين، هيا انهض ودعنا نتناول إفطارنا في الشرفة.

نهضتُ من فراشي بكل حماس واغتسلت، ثم أحضرتْ لي زوجتي المعطف الأصفر الخاص بالفندق لأرتديه، حيث كنتُ أضع فوطة الفندق كإزار. ثم قالت:

- هيا اذهب إلى الشرفة واستمتع بالمنظر الرهيب هناك، وسوف أنضم إليك بعد قليل، فأنا بحاجة إلى أن آخذ دشًّا سريعًا.

توجهتُ إلى الشرفة وجلستُ على كرسي مريح من الخيزران مغطى بالإسفنج اللين وأخذت أجول بناظري إلى البحر متأملاً ذلك الجمال الطبيعي المدهش والذي قلَّ أن تراه في بلادنا الصحراوية.

بعد ذلك، وبدون أي مقدمات أو آثار واضحةٍ لحدوث تغير في حالة الطقس، وجدتُ أشعة الشمس وقد حُجبت، وأصبح الجو أكثر ظلمة. فنظرتُ إلى السماء، فلم أجد سُحبًا. ثم نظرت عن يساري فوجدتُ شكلاً أبيض على شكل إنسان لكنه يشبه السحابة الرمادية المبيضة على بعد خطواتٍ قليلةٍ فقط مني. فتحتُ عيني وأغلقتها عدة مرات ثم فركّت كلتا عينيّ بأصابعي عدة مرات أيضًا، واعتقدت أنه ربما يكون ضعف بصري هو السبب في هذا الوهم، فقلت لنفسي: من المؤكد أن هذا وهمٌ وتخيل... حتى تحدث هذا الشكل المجهول قائلاً بصوت له أصداء:

- إنه يوم جميل، أليس كذلك، أيها الآدمي؟

شعرتُ بالرعب. وكانت أول فكرة بدرت في ذهني أن أركض إلى داخل الغرفة، غير أن قدميَّ تجمدتا وأصبحتا ثقيلتين للغاية وكأنهما قد التصقتا في الأرض بغراءٍ قوي. وكان يملأني حقًا الخوف الشديد من هول ما رأيت.

ورغم هذا، استطعت أن أقول بصوت منخفض ممتلئ بالخوف:

- كائنًا من تكون، فقط انصرف من حيث أتيت، وإلا فسوف أتصل بأمن الفندق. فقط انصرف... رجاءً.

فأجاب بثقةٍ وكأنه يعرفني من زمن طويل:

- إنني أحاول أن أصل إليك منذ زمن طويل جدًا، وخاصةً في أوقات المساء وخاصة عند الليل أثناء نومك. ولكنك تحصِّن

نفسك دائمًا بتلك الآيات والأذكار والأدعية الرادعة التي تداوم على تكرارها في كل مرة تجلس فيها بمفردك أو قبل الذهاب إلى النوم.

- ماذا، ماذا، عن أي أدعية تتحدث يا جني؟.

- إنك تعرف جيدًا ما أعنيه بالضبط. فقط كُف عن قولهم الآن. فأنا أحتاج فقط لبضع لحظات لأتحدث إليك، ولن أؤذيك أبدًا. فقط أنصت إليَّ، ويمكنك أن تطرح عليَّ أي أسئلة قد تدور في خلدك، إذا كان هذا سيجعلك تشعر بالارتياح وتستجيب لما سأُمليه عليك.

توقف ذلك الشيء لبرهة قبل أن يكمل كلامه:

- هناك أعداد كبيرة من الناس يعيشون على ظهر هذه الجزيرة، غير أنني أكثر إعجابًا بك أنت بسبب أفعالك الشيطانية الخبيثة، لقد أتيتَ إلى هذه الجزيرة فقط منذ بضع أيام قليلة، غير أنك خُنتَ زوجتك مرات كثيرة مع السيدات التايلانديات الجميلات النحيفات ممشوقات القوام.

وفى تلك اللحظة، فكّرتُ في قول الأدعية والأذكار لأصرفه بعيدًا. إلا أنه كان يعلم ذلك بوضوح فقال لي ثانية وبإصرار هذه المرة:

- لا تقل تلك الأدعية. إنني أحذرك من فعل ذلك، وإذا قلتها سأبطش بك ومن معك.

استعدتُ جزءًا من قوتي ورددت عليه قائلاً:

- من تكون أنت بأي حال لتبطش بي، أيُّها المخلوق المقزز؟

- أنت تعرفني جيدًا. وكل من يعيش في هذا الكون يعرفني أيضًا. ولكنهم لا يستطيعون أن يروني، غير أن هناك عددًا قليلاً منكم من يستطيع أن يراني، طبعًا الأشرار منكم. والآن أنت واحد من هؤلاء القلائل.. ألست محظوظًا أيُّها الآدمي؟

- على كل الأحوال من أنت بحق الجحيم؟

فرد باشمئزاز قائلاً:

- إنني أنا الشيطان. ولكن في بلادكم وفي الشرق الأوسط برمته تدعونني (إبليس). أفٍ، كم أكره أن يدعونني الناس بإبليس. وكأنه يكره حقًا هذا الاسم الذي ينعته به البشر.

- لا يمكن أن تكون هو. إنه قبيح المنظر ذو أنف طويل ووجه أسود وأذنين طويلتين، ويرتدي ثيابًا سوداء ويحمل عصًا خشبيةً، وله قرون تشبه قرون الغزال. إنك تبدو تقريبًا مثل بني آدم؛ باستثناء هذا الدخان الرمادي المبيض الذي يحيط من حولك.

- هذه مجرد أسطورة وخرافة. إنني أكثر جمالاً مما تعتقدون أيها البشر. ولا يفوتك أنني ملاك في الأصل كما علموكم، غير أنني ملاك ملعون.

ثم فتح عينه وكانت شديدة الاحمرار كلون كرز الصيف اللبناني وأضاف قائلاً:

- سأبوح لك بسر. إن جسدي الذي تراه مخلوق في الأصل من طاقة مليئة بالغازات المكثفة، وخاصة الهيدروجين، وأنني أتغذى فقط على غاز الأوزون الطازج كل صباح بالإضافة إلى اليود المتبخر من البحر. ولكني في بعض الأحيان أتناول ماء المطر لكي أستخلص منه الأوكسجين.

ثم نظر إلى السماء وسألني:

- هل ترى ذلك الثقب في تلك السحابة البيضاء قليلة الشحنات الكهربية، إنها مليئةٌ بالأوزون اللذيذ؟ لقد قمت توًا بأخذ قضمة منها، ولهذا يمكنك أن تجلس مطمئنًا في مكانك لأني لن أعضك أو آكلك.

شعرتُ بعدها بقليل من الراحة وبدأت أواصل طرح أسئلتي. فقلت له:

- ما الذي تريده إذًا مني أو تريد أن تخبرني به؟

- كل ما أودُّ أن أخبرك به هو أن تتوقف عن قول أذكارك وأدعيتك هذه الليلة، وسوف آتي لزيارتك بشكلٍ متكرر وأقدم لك التوجيهات والنصائح التي تساعدك على الحصول على أي شيء تريده في هذا العالم. وستكون شخصية مشهورةً ولامعةً ومرحبًا بك في كل منبر وحفل في بلادك. هل تفهم ما أقول؟ ولكن في المقابل يجب أن تطيعني طاعة عمياء وتتبع كل كلمة أقولها لك. وأيضًا تترك كل العبادات.

ثم أمال رأسه نحوي وسألني بصوت عالٍ وبحزم قائلاً:

- هل أنت موافق؟ وإذا وافقت، سوف أتركك الآن، وسوف أزورك في الليل.

ظللت أنظر من حولي، على أمل أن يسمعه شخص أخر وأن يهُب لإنقاذي، كان صوته عاليًا كالرعد بدرجة كافية ليوقظ حراس الفندق الكسالى النائمين. ولكن لسوء الحظ، لم يسمعه أحد، ولا حتى الزوجان - اللذان تبدو عليهما ملامح غربية - واللذان كانا يتمشيان على طول الشاطئ المجاور، أو حتى الطيور التي تسكن في أعشاشها الموجودة على أشجار جوز الهند القريبة من غرفتي.

ثم قلتُ بلطف وكأني أفاصل في شراء شيء من أحد أسواق وسط مدينة (بانكوك):

- قبل أن أوافق، لدي المزيد من الأسئلة الأخرى التي تحيرني وأود أن أطرحها، وإذا شعرت بالرضا من إجاباتك، فربما أفكر جيدًا في عرضك المغري.

بعدها بدأت على الفور في طرح أسئلتي، على أمل أن أتخلص منه بأسرع ما يمكنني، فقلت له اخبرني:

- كم يبلغ عددكم على ظهر هذه الأرض؟

- ليس هناك أحد أخر على هذه الأرض، إنني واحد من نوعي. ولكن هناك جن وعفاريت وقد يكونوا أسوأ مني.. وتذكر أنني ملاكٌ ملعون - أو كما تدّعون.

- ألا تتناسل مثلنا وتستمتع جنسيًا، الكل يفعل ذلك؟

- الملائكة لا يتناسلون مثلكم بني البشر، فالبشر يتناسلون بسبب قصر حياتهم الحيوانية، وأن هذا يمثل وسيلتكم الوحيدة للبقاء. في حين أن حياتي لا متناهية وقد تمتد إلى يوم الدين، وكذلك بإمكاني التمدد لأشمل أكبر منطقة ممكنة وفقًا لرغبتي، كما يمكنني أيضًا أن أتواجد وأظهر في أي صورةٍ أُحبها؛ وذلك لتكوين جسمي الغازي. ومتعتي الوحيدة هي إغوائكم.

لقد كانت "الأنا" عنده واضحةً وجليةً فيما قاله عن نفسه وكأنه يفخر بأنه الوحيد من نوعه.

- ولكن هذا يتعارض مع القوانين الطبيعية، مثل الفيزياء مثلاً.

- وماذا تعرف أنت عن ذلك وعن الفيزياء، أيها الآدمي؟ إنكم معشر الإنس تملكون ما هو أقل من خمسة بالمائة من المعرفة عن القوانين الطبيعية، حيث أن قدرة عقولكم لا ولن تستطيع أن تدرك جميع قوانين الطبيعة، وذلك لأنها قوانين إلهية.

- أحقا ما تقول، وهل علماء ناسا بذلك المحدودية من الفكر؟

- نعم. حتى علمائكم لا يفقهون من العلوم إلا ما هو في محيط المجال الطبيعي الخاص بكم. هل تعلم أن لكل مجرة كونية قوانينها الطبيعية الخاصة بها، ولكل كوكب قوانينه الطبيعية الخاصة به. كما أن الشموس التي تقع خارج نطاق مجرة درب التبانة والتي تعيشون فيها أكبر حجمًا بملايين المرات

من شمسكم. ولك أن تتخيل فقط كم يبلغ عدد وحجم الكواكب التي تدور حول هذه الشموس. الأيام هناك لا تحسب بالدقائق والساعات وإنما بالسنين. ولن يتسنى لأحد أن يدرك القوانين الإلهية التي وضعها الله. ولا حتى أنا. إنه هو الوحيد الإله الخالق الذي يدرك ذلك.

لقد ذكرني هذا الموقف بمدرس العلوم المصري الذي كان يدرسني في الصف الأول الثانوي.

- هذا جميل جدًا. إنك تبدو طيبًا ومؤمنًا بالنسبة لي. إذًا فلماذا لعنت وطردت من الجنة؟

ردَّ وصوته يمتلئ غضبًا وحقدًا قائلاً:

- بسبب أبيكم آدم. حيث أنني لم أستطع في ذلك الوقت أن أفهم السبب الذي من أجله خلقه الله القهار وفضَّله عليَّ وعلى باقي الملائكة. لقد اعتقدت أننا كنا أفضل منه، حيث أننا نحن الملائكة خُلقنا من نارٍ ونور، بينما خُلق هو من صلصال. ولهذا احتججت واعترضت على ذلك وفضَّلت أن أُطرد من الجنة على أن أسكن فيها مع أبيكم - المدعو آدم.

- أتريد أن تخبرني بأن القصص الموجودة في الكتب السماوية التي أؤمن بها صحيحة؟

- بعضها صحيح، وبعضها زائف بشكل جزئي، والبعض الأخر زائف تمامًا.

- حسنًا، سوف أقرأ عليك بعض الآيات التي أُوحيت لنبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم في القرآن الكريم، ثم اخبرني ما إذا كانت صحيحةً أم لا.

ثم بدأت في تلاوة بعض الآيات التي أحفظها عن ظهر قلب:

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }.

(سورة الحجر/ الآيات ٢٨: ٣٣)

- هذا صحيح.

- حسنًا، من أتى أولاً إلى الأرض: أنت أم البشر، ومتى كان ذلك؟

- أنا وأبوكم آدم وزوجته حواء نزلنا إلى الأرض في الوقت نفسه. غير أني أُرسلت إلى الأرض على نفس هيئتي التي كنت عليها في الجنة، ولكن أبوكم وزوجته تمَّ تعديل صورتهما وأُستنسخا في صورة كائن أو حيوان كان يوجد مسبقًا له رجلان ومنتصب القامة وكان يطلق عليه (إنسان) والذي كان قد وصل لمرحلة عالية من التطور وينتمي لفصيلة القرود.

وأما بالنسبة للشق الثاني من سؤالك، فالإجابة هي أننا هبطنا إلى الأرض منذ قرابة أربعمائة وخمسين ألف عام، وفقًا

لحسابات التقويم الأرضي، والتي تساوى قرابة ستة آلاف وأربعمائة عام بحسابات التقويم السماوي. وبالنسبة لكم، بني آدم، فإنكم قد استغرقتم فترةً من الوقت حتى يتطور وينمو عقلكم إلى المستوى الذي أنتم عليه الآن. ورغم ذلك، فمنذ أن أصبحتم أكثر ذكاء، أصبحت حياتي أكثر صعوبة. كما إنكم تواصلون عملية التكاثر بشكل أسوأ من تكاثر الجراد.

- أنت حقًا الشيطان، أليس كذلك؟

ثم تذكرت آنذاك آية أخرى من القرآن الكريم: { قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }

(سورة الأعراف: الآيات: ٢٤ – ٢٥)

ثم أعقبتُ قائلاً:

- طيب، ما زال لدي المزيد من الأسئلة: هل كان آدم وحواء على نفس الصورة في الجنة كما كانوا على الأرض؟

- لا إطلاقًا، لقد خُلقتم بصورةٍ كاملةٍ ومناسبةٍ للحياة في الجنة. ولكنكم على الأرض، لستم سوى مجرد حيوان. ألم تقرأ في القرآن ما قاله الخالق القهار عنكم أنتم البشر:

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }.

(سورة التين: الآيات: ٤ – ٦)

ثم واصل كلامه:

- من هنا، فإن وظيفتي على الأرض هي ألا أجعلك تفعل الأعمال الصالحة. وأيضًا مهمتي على الأرض هي أن أقذف بكم جميعًا في الجحيم، جميعكم بني آدم بلا استثناء.

- ولكن لماذا كل ذلك؟ لماذا لا تعيش وتستمتع بعمرك الطويل بل الأزلي؟

- متعتي إغواؤكم... أتسمي هذه حياة؟ لا عليك، إنك لم ترَ ما رأيتُ في الفردوس الأعلى.

ثم أكمل:

- اسمع، أبوكم كان السبب في طردي ومغادرتي للجنة، أبوكم هو المتسبب في كل المشكلات التي حدثت في الجنة وعلى الأرض أيضًا. انظر كم أصبحت الأرض ملوثةً، وانظر كم عدد الحيوانات التي انقرضت من على ظهر الأرض بسببكم، وانظر إلى حجم الجشع والكراهية والبغضاء التي تحويها قلوب البشر، انظر إلى عدد القتلى اللذين يسقطون باسم الله يوميًا.

- لقد جعلتنا نبدو كمجرمين وفي حالٍ أسوأ من حالك أنت!

حسنًا... هل كانت الأرض على نفس الصورة التي نراها عليها الآن؟.

- لقد قلت لك، كانت أفضل بكثير، وكانت أكثر خضرةً ونظافةً واتزانًا وكانت تمتلئ بالمخلوقات الجميلة من كل الأنواع. وأنا لم أكن مؤيدًا لفكرة نزولكم إلى الأرض، ولم أكن أنا فقط الذي أعترض أو أحتج على ذلك، فقد فعل ذلك أيضًا كل الملائكة تقريبًا، ولكن اقتضت إرادة الله حيث أننا لم نستطع إيقاف ذلك.

- بالفعل، ولقد تذكّرتُ توًا آية من القرآن الكريم توضح ما قلته الآن. حيث قال سبحانه وتعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } (سورة البقرة: الآية: ٣٠)

أتعرف أيها الشيطان، لقد اعتقدت أنك لست سوى محض خرافة، حيث أنني أؤمن فقط بما أستطيع أن أراه أو ألمسه. والآن، فأنا لست متأكدًا ما إذا كنتُ مستيقظًا أم أنني أحلم. وفي كلتا الحالتين، فما زال لدي المزيد من الأسئلة التي أودُّ أن أطرحها قبل أن أوافق على طلبك المسبق: هل الله حقًا موجود، وكيف أستطيع أن أراه؟

شعرت للوهلة أنه كان مستاء قليلاً من السؤال الذي طرحته. ولكنه عقّب قائلاً:

- أنت والله شيطان مثلي، كيف تسأل هكذا سؤال. إنه من الصعب بالنسبة لكم بني ادم أن تدركوا الله بحواسكم الحيوانية

الضعيفة، ولكنكم تستطيعون أن تشعروا به. وهناك بعض البشر- الذين يتمتعون بمخ يحتوى على فص صدغي أكثر تطورًا ونشاطًا وفاعليةً- وهم فقط الذين يستطيعون التقاط إشارات إلهية. ومن ثم، فإن بعضًا منكم يكونون أكثر قربًا وتعبدًا لله. ويمكنك فقط أن تغلق عينيك، وأن يكون لديك اعتقاد ثم تقوم بالتركيز في ذلك، أو كما يطلق عليه بعضكم، التأمل والتدبر. فقد يمكنك أن تلتقط بعض من تلك الإشارات والأنوار الإلهية.

- هذا تقريبًا صحيح. ولكن دعني أكمل أسئلتي التي طالما حيرتني، وهذه فرصتي أليس كذلك؟

- تفضل.

- ما هي المادة؟

- المادة هي العنصر أو العناصر الكربونية التي تحيط بالأرواح. وهذه هي الطريقة التي تؤدون بها أفعالكم بني آدم.

- ومن خلق الله؟

- أعوذ بالله منكم بني أدم، إنه لم يكن لِيُخلق أبدًا. ولكنكم أيها البشر تعتقدون أن الحياة على كوكب الأرض قد نشأت من خليةٍ واحدة أوجدتها وخلقتها الطبيعة؛ أو الصدفة، كما قال عالمكم ودجالكم الأكبر داروين. في حين أنكم دائمًا تسألون عن من خلق الله. فالله هو المصدر السرمدي للمحبة، لم يلد

ولم يولد، هو الأزل والأمس واليوم والغد. إنني لا أستطيع أن أتخيل أنه كانت هناك لحظة واحدة لم يكن فيها الله موجودًا.

- إذا كنت تحب الله، فلماذا إذًا لا تتوب إليه وتطلب منه الصفح والغفران. فلربما قبل توبتك وغفر لك وأعادك إليه.

- لا راد لمشيئة الله، لقد اقتضت مشيئة وإرادته أن أكون هنا، وذلك ربما يكون لاختبار قوة إيمان الإنسان ومدى صبره. وهذا بالفعل ما أقوم به ليل نهار.

- إذًا، أنت المتسبب في كل تلك المشاكل والحروب والمعاناة التي يلاقيها بني الإنسان؟

- إنني أقوم بدور التشجيع والتحفيز، وهذا هو كل ما أفعله. إنني لا أشارك في المعارك أو الحروب، إنها تنبت من داخل قلوب الناس أنفسهم، قلوبهم المليئة بالبغض والغضب وحب الهيمنة والجشع. ولتنظر لنفسك كمثال هنا: فأنت لديك زوجة جميلة، ولكنك تستمر في خيانتها مع السيدات الأخريات. ولقد همستُ في أُذنيك فقط بأن تفعل ذلك، فانطلقتَ مباشرةً بدون تفكير لتفعل ما أمرت به من ذنب. ولا تنزعج بما قلته توًا لك. إنني أُعجبتُ حقًا بك لأنك غاية في البساطة والسهولة بالنسبة لي. عندما أريد أن أغويك تستجيب.

- الآن فقط فهمت! إذًا لم تكن غريزتي الحيوانية هي السبب في ذلك! إنك أنت السبب وراء كل هذا!.

ولكن دعني أيضًا أفكر في سؤال جيد.

ثم توقفت للحظة، وحككت رأسي بضع مرات، ثم سألته:

- من هم الأشخاص الذين عجبت بهم من بني أدم وساعدوك كثيرًا في القيام بمهمتك على كوكب الأرض؟

- في الواقع، هناك الملايين منكم بني آدم. حيث جميعهم تقريبًا مستعدون لإتباع وتنفيذ أقل همسة أو نفثه تصدر مني لهم. ففي القرن الماضي بمفرده أغويت ملايين القتلة والمغتصبين والسفاحين ومرتكبي المجازر الجماعية. غير أن الأشخاص المفضلين بالنسبة لي هم (ستالين، هتلر وبول بوت)، فهم رجالي الحقيقيين. وبالطبع، هناك المزيد من أمثال هؤلاء ولكنهم أقل من حيث الدرجة.

- من هو الشخص الذي لم تستطع غوايته؟

فأجاب بحزن وأسى قائلاً:

- إبراهيم، أو نبيكم إبراهيم.

- لقد جعلتني أرتعد خوفًا من أفعالك. إنني بصراحة مرعوب مما أسمعه منك، رغم أنني فخور بما قلته توًا عن النبي إبراهيم. فعلى الأقل هناك أناس يستطيعون أن يمنعوك من الوصول إلى قلوبهم.

- هل لديك المزيد من الأسئلة، أم أننا بإمكاننا الشروع في تنفيذ اتفاقنا؟ لقد فتحت لك قلبي وقلّما أفتحه، ويجب عليك معاملتي

بالمثل... قالها وهو يبدو وكأنه في عجلة من أمره، وكانت عيناه متجهتين نحو الغرفة ينظر إلى الداخل نحو حمام وباب الغرفة.

- تمهل، تمهل!.. فما زال لدي المزيد من الأسئلة، إذا لم تكن تمانع. هل لك أي تأثير أو سيطرة على الموتى؟

- ليس عليهم جميعًا. فعندما يموت الناس لأسبابٍ طبيعيةٍ - مثل الشيخوخة والمرض والحوادث وما شابه ذلك - فإن أرواحهم ترتفع إلى العالم العلوي أو ما تسمونه البرزخ، ويكون هذا خارج نطاق قدرتي لأصل إليهم. ورغم ذلك، فالأشخاص الذين ينتحرون، كمثال، تظل أرواحهم عالقةً لبعض الوقت على الأرض، ويكونون في نطاق قدرتي على الوصول لهم ويكونون أكثر عرضةً وتأثرًا بإغوائي.

- وماذا عن أنبياء الله موسى وعيسى ومحمد، وأيضًا كل من بوذا وسقراط، وبقية المُعَلمِين العظماء؟

- إنهم يحتلون مكانة عظيمة في العالم الأعلى وليس لي قدرة على الوصول إليهم. وحتى عندما كانوا يعيشون على الأرض، فقد كان من الصعب للغاية الوصول إليهم أيضًا. فكل الصالحين من البشر، وحتى في الوقت الحالي، يكون من العسير تمامًا إغوائهم. ففي أحد المواقف، مكثت في الهند لبضعة أيام أحاول أن أُقنع الأم (تريزا) أن تعدل وتبتعد عن

الاستمرار في القيام بأعمال الخير والبر. ولكني فشلت في ذلك. وهناك مثال أخر على ذلك وهو أنني كل عام أقضى وقتًا ثمينًا أحاول أن أُقنع الناس بعدم الذهاب إلى زيارة بيت الله الحرام بمكة لأداء فريضة الحج ورمي الجمرات. غير أن الملايين منهم لا يستجيبون لإغوائي ويذهبون إلى هناك في النهاية.

- ما هو أسوأ يومٍ مرَّ عليك؟

- لقد كان اليوم الذي سمعت فيه خطبة الوداع التي ألقاها النبي محمد.

ففكرت في ذلك، واعتقدت أنه ولابد يقصد ما أشار إليه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في خطبته: "أما بعد أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه. ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم".

- إذًا أنت أيضًا لك نجاحاتك وإخفاقاتك؟

وكان من الواضح أنه لم يكن يحب أن يكون موضع سخرية وتهكم، أو ربما كان هذا فقط ما كنت أعتقده، حيث بدأت جبهته تتسع وتعرض، كما برزت عيناه وأصبحت كالفقاعات. وكانت شديدة الاحمرار كدمٍ الماعز وظلت تتسع وتتسع، وبدأ فمه يتجعد وينغلق نحو الداخل.

فكَّرتُ في الصراخ، ولكني استجمعت قوتي وقلت له:
ـ معذرة لما حدث، فأنا لم أقصد أن أُهينك أبدًا.

غير أن عينيه الحمراوين ظلت تتسع وتكبر، ثم حلَّق ببطءٍ بعيدًا عني. وفجأة، انفجرت إحدى عينيه وغطتني بدمٍ كرزي اللون كثيف كالمخاط. غطاني ذلك الدم من رأسي حتى أخمص قدمي. فصرخت بصوت عالٍ صرخة مدوية واعتقدت أن كل من على ظهر تلك الجزيرة قد سمعني. وشعرت أيضًا بألمٍ رهيبٍ في صدري ورأسي. وفكَّرتُ في زوجتي، وتعجبتُ عن سبب تأخرها في الحمام لفترة طويلة جدًا، وربما قد قتلها أو فعل مكروهًا لها. ثم تمكنت في النهاية من أن أستجمع كل قوتي وصرختُ مناديًا باسم زوجتي.

فقالت، ـ وقد أحسَّستُ بالرعب والفزع في صوتها ـ :
ـ إنني هنا، بجوارك. أفتح عينيك.

ففتحت إحدى عينيّ ببطء ورأيت كلاً من زوجتي وأحد موظفي الفندق وهما يَسكبان الماء على رأسي. ويدا موظف الفندق مرفوعتين للأعلى كما لو أنه يريد أن يصفعني على وجهي.

فردَّدتُ عليها في فزع وهلع:
ـ أين ذهب الشيطان؟ ولماذا أنا غارق ومبلل، إنه دم الشيطان؟

قالت زوجتي وهي تطمئنني:
ـ لا، انه ماء أرقناه عليك لإفاقتك من الإغماء.

ثم أردفتْ قائلة:

- ليس هناك أي شيء، لقد كنتَ فاقدًا للوعي. ربما انخفاض سكر دمك أو ارتفاع ضغط دمك.

دفعتْ زوجتي بمكعبٍ من السكر داخل فمي وتوسَّلت إلي قائلة:

- تناولها من فضلك. وستكون بخير إن شاء الله. أنا آسفة، لم يكن من المفترض أن أتركك وحدك. لقد اتصلنا بسيارة الإسعاف، وستكون هنا خلال لحظات قليلة.

- لا يا حبيبتي. فقط اتصلي بهم وأخبريهم أني بخير الآن. ألا يمكنك أن تلاحظين ذلك؟

ثم طلبتُ من موظف الفندق أن يتركنا بمفردنا.

وبمجرد أن تركنا قلت لزوجتي:

- لا أدرى كيف أُخبرك بهذا. ولكنه كان الشيطان. لقد كان هنا حقًا، يتحدث إلي.

- تعوذ من الشيطان. ليس هناك أي شيء من هذا القبيل هنا. إنه فقط خيالك الذي صوَّر لك هذا بسبب الإغماء.

ظلت زوجتي بجانبي تحاول أن تهدئ من روعي. ثم وضعت يدها الناعمة على رأسي وبدأت ترتل وتردد ببعض الآيات والأدعية.

- إنني جوعان وعطشان وشفتاي جافتان للغاية. من فضلك أعطيني كأس من الماء المثلج.

- عندما وصل موظف الفندق بالإفطار طلبتُ منه أن يذهب به إليك في الشرفة، حيث وجدك فاقدًا للوعي. فأبلغني بذلك على الفور، تأكد أيضًا من نبضات قلبك وأخبرني بأنك ما زلت على قيد الحياة، وألا أقلق عليك وأنه مدرب لمثل هذه الأمور.

بعدها طلبتُ منها أن تتصل بخدمة الغرف، حيث إنني كنت أود أن أرى ذلك الموظف الذي أحضر الإفطار. وخلال بضع دقائق حضر الموظف إلى الغرفة. وبدون أي تفكير، عانقته عناقًا حارًا يملأه التقدير الصادق، ثم شكرته، ووضعت في يديه بعضًا من الدولارات ولكنه رفض أن يأخذها.

عندما غادر الغرفة، نظرتُ إلى زوجتي وتقدمتُ ببضع خطوات نحوها، ثم عانقتها، وضممتها إلى صدري وكأني كنت أود أن أجعل قلبي وقلبها ينبضان معًا كقلب واحد. فبادرتني بقبلةٍ على شفتيّ وقالت لي:

- أحبك. أنا في غاية السرور أنك بخير.

بينما كنا نستعد لنتناول الإفطار، سألتني زوجتي بشكل مهذب:

- ماذا حدث لك؟ اعتقدت أننا قمنا بضبط مستوى السكر عندك. وما أذهلني هو عندما أفقتَ من الإغماءة وفتحتَ عينيك، كنتَ تسأل عن الشيطان وأين ذهب. هل كنت تهلوس لا قدر الله؟

- لا تقلقي بخصوص ذلك الأمر. فليست سوى دوخة، ربما من إرهاق السفر وقلة النوم.

وبعد تناول الإفطار، سألتني زوجتي إذا كنا نستطيع أن نجلس على الشاطئ بجوار الماء. وقد كانت بالفعل فكرة رائعة بأن أجلس بجوارها بعد ذلك الحادث الأليم. طبعًا وافقتها الرأي وهناك كنا لوحدنا ولم نفعل شيئًا سوى تبادل القُبل بصمتٍ تام وكأن عيوننا وشفانا هي التي تتكلم. وبعد ساعة وربما أكثر عدنا سويًا إلى الغرفة، وأغلقنا الباب الزجاجي الخاص بالبرندة وأسدلنا الستائر. ثم اعتذرتُ لها وسألتها إذا كان بإمكاني النوم ولو لساعة أو لساعتين. حيث كنت مجهد ومتْعب.

استيقظتُ قرابة الساعة ١:٤٢ ظهرًا. ونظرتُ من حولي فلم أجد زوجتي، ناديت عليها ولكن ما مجيب. وبعد نصف ساعة، اتصلتْ زوجتي على هاتف الغرفة وقد شعرتُ بالحماسة في نبرة صوتها حيث قالت:

- لقد قابلت بعض السيدات الأستراليات. إنهن في غاية المرح والإثارة. وسيقومن بعمل حفلة للاحتفال بزواج إحداهن الليلة، ولقد دعونني لحضور تلك الحفلة. أتعرف ماذا؟ الله يخليك وافق، وأنت يمكنك الذهاب إلى مطعم (ديفلز بار)، ذلك المطعم الذي كنا فيه بالأمس. وسوف تجد أصدقاهن وأزواجهن جالسون هناك وما عليك إلا أن تقدم نفسك لهم وسوف يتعرفون عليك مباشرة.

- حسنًا، فقط عودي إلى الفندق وسوف نناقش ذلك سويًا.

ذهبت زوجتي إلى الحفلة قرابة الساعة ٨:٥٥ مساءً. غير أنني قررتُ عدم الذهاب إلى أي مكان لأني ما أزال أشعر بالإجهاد من كثرة التفكير بما حدث لي.. هل كان ذلك الشيطان الرجيم حقيقيًا أم مجرد وهم؟ ولماذا أنا بالتحديد؟ وفكَّرت في ترديد الأذكار التي علمتها إياي والدتي عندما كنت طفلاً، غير أنني أحسست وكأني أودُّ رؤيته مرة ثانية. إنه يبدو مختلفًا تمامًا عن أي شخصٍ أخر أعرفه على كوكب الأرض؛ وأنا بطبعي فضولي. فمن المذهل أنه يستطيع الطيران وأن يغير من شكله متى أراد. والأكثر إذهالاً من كل ذلك؛ ورغم كل ما حدث، أنه اختارني أنا بالتحديد. وما أعجبني أكثر هو إني لم أعده بأي شيء حينما حلَّق مغادرًا بدون أن يودعني.

وأخيرًا قررتُ عدم ذكر الأدعية والآيات والتي قد تبعده وتصرفه عني. شعرت بالفعل وكأني أود أن أتحدث إليه مرة أخرى لعلي أفهم حقيقة أهدافه ومقاصده وكذلك صدق القصص التي تتحدث عنه. لابد أن يكون هذا حقيقيًا، فلقد رأيته بأُمِّ عيني هاتين، وأعرف كيف كان شكله. ثم تساءلت، لابد أن أتحدث إليه مرة أخرى. فعلى مدار حياتي كلها تعلمت أن الشيطان هو الشر والدمار، وكان دائمًا مصدر رعب لي عندما كنت صغيرًا وكان أيضًا يمثل الشخصية السيئة، وأنه هو الملعون إبليس.

غير أنني بعد ذلك كله، وعلى الأقل، سيكون هذا المخلوق حقيقيًا إذا تمكنت من رؤيته مرة أخرى ويثبت لي ذلك ويدعني

ألمسه. ثم بدأت أتسأل لماذا أتى إلي الشيطان وأنا في (تايلاند) وليس وأنا في بلدي؟ ولماذا أنا؟ فهناك الكثير ممن هم أسوأ مني بمراحل..

وهكذا كانت تدور في ذهني الكثير من الأفكار والتساؤلات التي لم أبح بها لزوجتي، بل تظاهرت أني فقط متْعب.

وبعد كل هذه الأفكار السخيفة ذهبتُ إلى الفراش، محاولاً الانغماس في النوم، وقررت ألا أقول أذكار النوم المعتادة. سحبت البطانية حتى عنقي وأغلقت عينيّ.. لا نوم. استدرت لأنام على جنبي الأيسر ثم على جنبي الأيمن.. لا نوم. ثم على بطني وعلى ظهري ولكن لم أستطع النوم. جسدي منهك غير أن مخي كان يقظًا ولا يتوقف عن التفكير والوسوسة. وفي النهاية، نهضت من الفراش واتجهت نحو الثلاجة وأخرجت زجاجة من الحليب علها تساعدني على النوم. تناولت هذه الزجاجة بأكملها، وبعد بضع دقائق، أخرجت الزجاجة الثانية أيضًا وتناولتها أملاً في النوم.. لا نوم.

حاولتُ مرة أخرى أن أخلد إلى النوم، فانغمستُ في الفراش مرة أخرى وكنت أشعر ببرد الهواء القادم من جهاز التكييف. وفكرت في الذهاب إلى بار الفندق لألتقط سيدة من هناك والتي قد تشبع رغباتي الجنسية وتنسيني همي وبرود زوجتي الجنسي. غير أني قلت لنفسي "لا"، إنه هو، إنه هو من يحاول

أن يغويني الآن!.. وبدأت ألوم نفسي عن كل الذنوب والمعاصي والتصرفات الشهوانية التي دفعتني لأن أخون زوجتي. ثم فكرت في الأمر، هل من مفر حتى أستطيع أن أكف عن ذلك.

وفجأةً وبينما أنا كذلك، رحت في سبات عميق.

وإذ به يهمس في أذني قائلاً:

- أنت هنا، افتح لي قلبك، أنا هنا أيضًا.

... وقد سمعته، رغم أن هذا الهمس كان يبدو وكأنه موجة صوت صدى ضعيفة.

- شكرًا لك. أنت ولدٌ جيد، إنك حقًا ولدٌ مطيع ويسمع الكلام. إنك تمامًا مثل والدك. فلقد فعل كل ما أمرته به. حقًا ابن الأسد لا بد أن يكون أسدًا مثله. لقد استمتعت بالحديث معك اليوم، أيها الآدمي.

لم أكن أصدق أنه هو قد عاد. حيث اعتقدتُ أن هذا الشيء برمته ما كان إلا كابوس أو أضغاث أحلام. ولكنه عاد بالفعل مرة ثانية. ثم نظرت إلى عينيه الحمراوين، رغم أني كنت تواقًا لرؤيته مرة أخرى إلا أني صرخت بصوتٍ عالٍ:

- هل من الممكن أن تدعني وشأني؟ هل من الممكن أن تدعني وشأني؟ تبًا لك أيها الشيطان القذر.. والله افتكرتك كابوس وعدَّى.

- لماذا تشعر بكل هذا الغم والحقد نحوي؟ سأغادر إذا أصررت، ولكنك ستحتاج إليَّ بعد ذلك، وستندم على ما فعلته عندما أغادر، وإذا طلبتني مرة أخرى لن أجيبك، وأنت الخسران.

وفجأةً أصبح صوته أعلى كالضجيج. ثم أمرني:

- افتح عينيك! مما تخاف؟ أنظر إلي وأنصت إلي جيدًا. لقد ساعدتك ودعمتك منذ أن كنت فتىً مراهقًا، أنظر إلى نفسك؛ لقد صنعتُ منك ما أنت عليه الآن. وها أنت الآن تستمتع بكل شيء: النساء، والمسكرات والمال. أنظر كم أنت سعيد. والآن سوف أساعدك حتى تصبح أكثر سعادةً وثراء.

- إنني سوف أخبرك بما أريده منك بالضبط، إنني أريد منك أن تبتعد عني وعن أسرتي، هل يمكنك أن تلبي لي هذا الطلب؟ من فضلك لقد أقلقتني، وأنت لست حقيقة بل كابوس، لو كنت حقًا كما تقول لظهرت لي وأنا في صحوتي!

- لو ظهرت لك في صحوتك فلن تراني، حواسك لا تسمح بذلك ولكني فقط أستطيع أن أخاطب عقلك الباطن عندما يكون أكثر نشاطًا عند النوم. وإذا لم تكن تصدقني فاسأل زوجتك التي أنقذتها الليلة.

- كيف؟

- حسنًا، سوف تطرق زوجتك الباب الآن، وسوف تخبرك بأن رجلاً أستراليا أمسك بها وحاول أن يغتصبها، غير أنني ظهرت في الوقت المناسب كرجل مفتول العضلات فأخفته وفرَّ هاربًا.

- ولكنك شيطان. فكيف تفعل مثل هذا العمل الخيِّر؟

ثم بعد ذلك بقليل، حضرت زوجتي وفتحت الباب وعندها استيقظتُ، كانت ترتدي ملابس جميلة جذابة وكانت في حالة تمتزج بالسعادة والمرح ولكن الخوف كان باديًا على محياها.

- كيف كانت حفلة الزواج؟

- لقد كانت بسيطة ورائعة وجميلة. ولم يسبق لي أن حضرت حفلة مثلها أبدًا. ولقد قطعت الحفلة منذ قليل لكي آتي وأطمئن على صحتك.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- بالطبع، أنا متأكدة.

وكنت أستجوبها وكأني ضابط في المباحث. وواصلت طرح الأسئلة قائلاً:

- ألم يحاول أحد اغتصابك بينما أنتِ في طريقك للفندق؟

- بالقطع لا!

- أنتِ كاذبة. إنني أعرف ما حدث بالضبط. لقد حاول ذلك الرجل الأسترالي أن يغتصبك.

مرَّت بضع لحظات قبل أن ترد بعصبية وغضب قائلة:

- كيف عرفت ذلك؟ هل كنت تتجسس عليَّ؟

- لا لم أفعل ذلك على الإطلاق. لقد أخبرني الشيطان بذلك.

- إنك بحاجة للذهاب إلى طبيب. لا يوجد شيطان في "تايلاند" أو في أي مكان أخر، إنه يوجد فقط في مخيلتك المريضة. الناس هنا فقراء ولكنهم ظرفاء وكرماء. يمكنك أن تجد الشيطان في الدول الغنية، مثل الولايات المتحدة، ألمانيا، أو حتى فرنسا أو بلادنا. فلماذا يضيع الشيطان وقته عبثًا هنا، مع هؤلاء المساكين اللذين قلَّما يجدون قوت يومهم؟

فقلت لنفسي "إنني أعرف أنه لن يصدقني أحد، ولا حتى زوجتي". ولهذا قلت لزوجتي:

- أنا متأسف لذلك. لقد كان هذا مجرد خيال نسجه عقلي.

أخذ الوسواس مني مأخذه وقلت في نفسي "لعلها كانت تخفي شيئًا"، كما أنني كنت ما زلتُ غير متأكد مما كان يحدث معي. ولهذا، كان كل ما قلته لها:

- أنا أحبك، تصبحين على خير.

ثم سحبتُ البطانية حتى غطت رأسي وتظاهرت أني نائم. أخرجتُ ريحًا، أصدرتُ شخيرًا وأصدرتُ كل أنواع الضوضاء الأخرى التي يصدرها الشخص النائم. ولكن الشيطان لم يظهر هذه المرة. واستطعت أن أسمع شخير زوجتي، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائمًا، وكنتُ دائمًا أستمتع به، فقد كان هذا صوتًا موسيقيًا للغاية بالنسبة لي، فقد تعايشت مع هذا الشخير على مدار الخمسة عشر سنة الماضية، لدرجة أنني لا أستطيع النوم

بدون صوت شخيرها. وفي بعض المرات التي كنت أقيم فيها في الفنادق بمفردي كنت أظلُّ مستيقظًا حتى الصباح التالي.

وفي النهاية، راحت عيني في النوم بكل هدوء... وقبل بزوغ ضوء النهار بساعة، ظهر مرة أخرى ذلك المدعو بالشيطان.

- الصباح يوشك أن يبزغ نوره هنا. أنت رجلي بحق. لقد أعجبتني الطريقة التي تحدثت بها مع زوجتك. لو كان لي زوجة مثل زوجتك، لكنت أخبرتها نفس الشيء.

فتحتُ عينيَّ وقلت له:

- أشكرك، أيها الشيطان. كم هو جميل منك أن تقول ذلك. وأشكرك أيضًا على إنقاذ زوجتي من ذاك الرجل المجرم الحقير.

- لقد بدأت تثق بي.

- كيف لك أن تظهر بصورة مختلفة تمامًا كهذه؟ إنك تشبه البشر الآن. إنك حقًا تبدو شبة أخي.

- ألم أخبرك بأنني أستطيع أن أظهر في أي صورة تروق لي؟ والآن أنصت إليَّ، يا ابن آدم، إنني أريدك أن تقوم بأشياء من أجلي، فمهمتك الحقيقية سوف تبدأ الآن ومن هنا.

- إنني هنا فقط منذ بضعة أيام، وسوف أغادر خلال خمسة أيام. أنا لا أكاد أعرف أي شخص هنا. فعن أي مهمة تتحدث إذًا؟ ومهما كانت هذه المهمة المطلوبة، فإنني ما زلت بحاجة

لمزيد من الإجابات قبل أن أؤدي لك ما تطلبه من مهام. ما هو رأيك في أشخاص مثل أسامة، جورج دبليو. بوش، ديك تشيني، نتنياهو، شارون، القذافي، الأسد، صدام، وباقي هؤلاء الأشخاص من قادة وزعماء العالم؟

- إنهم رجالي، فلقد ساعدت الكثير منهم في الوصول إلى السلطة وسدة الحكم، غير أن الكثير منهم فقد صلاحيته، ولم تكن لي استفادة منهم.

- ماذا تقصد بذلك؟

- إنني أقصد من مات منهم.

- وماذا عن أسامة؟

- انظر، لقد كان بمثابة الرجل الذي وهب حياته لله. ولقد خصصت الكثير من الوقت من أجله، حتى استطعت في النهاية أن أضمه لصفوف رجالي.

- كيف ذلك؟

- لقد استغرق الأمر مني قرابة عشر سنوات وفقًا لحساباتكم الزمنية لكي أقنعه بذلك. ولكن ذات يوم، همست في أذنيه، وكان سريع الاستجابة في تلك المرة ومستعدًا لتنفيذ مهمتي.

- عن أي مهمة تتحدث؟

- بأن يقتل أكبر عدد ممكن من الناس. في القرن العشرين، كان هناك الكثير من الأبطال، غير أنه بقرب نهاية هذا القرن، لم

يعد هناك منهم تقريبًا أحد، باستثناء أسامة وجورج دبليو. الابن.

- هل تشعر بالحزن والضيق لو احتكم الناس في أنحاء العالم إلى عقولهم وقلوبهم وتبنوا أسلوب الحوار بدلاً من خيار الحرب؟ كنت آمل في أن أسمع ردًا بالإيجاب.

- عن أي مشاعر وأحاسيس تتحدث؟ إن حياتكم أيها البشر قائمة على القتل، إنكم تستمتعون بمعاناة إخوانكم من بني جنسكم. إنكم بني آدم لستم سوى قتلة وسفاحين.

أنا لديَّ مهمة في هذه الحياة، لكنكم أنتم أيها البشر ليس لديكم أي مهام تقومون بها، إنكم تلقون باللوم عليَّ طوال الوقت عندما تقومون بأفعالكم الشيطانية، وبهذه الطريقة، فإنكم تبرؤون أنفسكم من أخطائكم التي ترتكبونها... دعني أخبرك بقصة، لقد كنت في البرازيل منذ بضعة أيام، حيث قام أحد الأولاد الفاسدين بقتل والدته، وقد ألقوا باللوم في هذا الأمر برمته عليَّ أنا. يجب أن تفهم إني لا أتعامل بهذا الأسلوب.

ثم نظر إلي ببراءة قائلاً:

- إنني ملاك من الملائكة، وأنا الملاك الوحيد على الأرض. إنني أستاء عندما أسمعكم أيها البشر تمدحون نساءكم وتنادونهم بالملائكة، في حين أنهم ليسوا كذلك، ولا أنتم أيضًا رجال بني آدم.

- أنا متأسف لذلك، فلم أقصد أن أجرحك. إنني فقط كنت أتساءل ليس إلا. ما هو الهدف من هذه الحياة؟ ولماذا نحن هنا على أي حال؟

- الله يريد أن يختبركم ويختبركم ثم يختبركم. فأولئك الذين يملكون قلوبًا طاهرةً نظيفةً ويقومون بأعمال الخير ويسَّبحونه سوف ينالون ثواب أعمالهم وصفاء قلوبهم بالفوز بالجنة. وأما الأشرار فسيكون مصيرهم إلى الجحيم برفقتي.

قال ذلك وكما لو أن الجحيم متنزه للترفيه والتسلية.

- هل أنت السبب في حدوث الثورات العربية؟

- لا، فهؤلاء الحكام الديكتاتوريون كانوا أصدقائي، فدائمًا ما كانوا ينصتون إليَّ ويطيعون ما آمرهم به. إن هؤلاء العرب الذين شاركوا في هذه الثورات كانوا يريدون التخلص مني ومن أصدقائي معًا. ومهمتي هي أن أدمر حياة هؤلاء الأشخاص، وسوف أفعل.

- حسنًا، والآن، من فضلك أرحني. فأنا خائف للغاية من المستقبل، فما الذي يحمله المستقبل لي وللبشرية كلها؟

فردَّ بابتسامة قذرة قائلاً:

- الغيب دائمًا نعمة، ومن الأفضل لك ألا تعرفه. ولكن إذا كنت تصر على معرفة ما سيحدث لكم، فإنني سوف أبدًا بالأخبار السيئة. ففي حوالي عام ٢٠٤٥، ونتيجة للتلوث وآثار

الاحتباس الحراري والاستخدام الجائر والسدود، سوف تجف مياه الكثير من الأنهار العظيمة مثل نهر الأمازون ونهر النيل وإن بصورة جزئية، وسوف تختفي وتنقرض الكثير من الحيوانات البرية والنادرة من على وجه الأرض. وسوف يتكاثر عدد البشر والدجاج والخنازير. أما بالنسبة للأخبار الطيبة، فإنه من بداية عام ٢٠٨٠، سوف تقل وتنخفض عملية انبعاث الغازات المتعلقة بالوقود الحفري بشكل واضح وملحوظ، وسوف تعيد الطبيعة الأم التوازن المطلوب بنفسها عن طريق إنتاج فيروسات قوية وشرسة والتي سوف تقلل من أعداد البشر وبذلك تعيد الأرض خلق ذاتها من جديد. سوف يستغرق هذا فترة طويلة من الشفاء والتعافي. إنني أتوق إلى مثل هذه اللحظات ولا أطيق الانتظار حتى ذلك الوقت، إنني أفتقد تلك الأيام الجميلة التي كنت أنغمس وأستمتع فيها كل صباح بغاز الأوزون الطازج، واليود البحري وتنفس الهواء النقي.

- هل فعلاً سينزل المسيح إلى الأرض مرة أخرى ويصلحها؟
- هذا محال، من يريد العودة إلى الأرض؟.. فالناس عندما يغادرون الحياة الدنيا لا يعودون أبدًا إليها ثانية.

- حسنًا، أيها الشيطان، سوف أنضم إليك وأطيعك فيما تريد. ولكن قبل أن نشرع في ذلك، أريد أن أكون غنيًا وعلى وجه السرعة. إنني على حافة الإفلاس.

كنت أتحدث إليه وكأنني أساومه للتوصل إلى أفضل أتفاق معه.

- إليك ما تريد. ويمكنك أن تبدأ بتجارة الرقيق الأبيض؛ أي النساء، وكذلك تجارة المخدرات. فجميع الناس - وخاصة أولئك الذين يعيشون في الشرق الأوسط - محرومون من الجنس والمتعة ويشتهون هذين الشيئين. وهناك الكثير منهم هنا، وسوف أوضح لك كيف تقوم بذلك ومع من تتعامل.

ذهلت من إجابته وصحت في وجهه قائلاً:

- هل هذا ما تتوقع مني أن أفعل؟ تبًا لك، أيها الشرير. أغرب عن وجهي الآن.
- ماذا أصابك وما المشكلة؟ وماذا كنت تتوقع مني أن أعرض عليك، كتاب مقدس تقوم ببيعه؟ إنني محتار فيكم بني آدم.
- تمهل للحظة، ماذا تحاول أن تقول؟
- لقد تلقى أجدادكم شرائع سماوية من الله، ولكنكم قمتم باستغلال هذه الشرائع ولم تحسنوا استخدامها والاستفادة منها. دعني أكون صادقًا معك، فلو أعطيتك أنبل وأشرف هدية في هذه الدنيا، فسوف تنحرف عن المسار الصحيح وتسيء استغلالها.

- عما تتحدث بالضبط وماذا تقصد؟

- حسنًا، عندما دعا الله "موسى" لبضعة أيام كي يعطيه الوصايا العشر، عاد ليرَ قومه يعبدون العجل. وعندما أرسل الله روحه لأجدادكم - المسيح عيسى - وأمركم بعبادة الله وحده، قمتم بعبادة المسيح بدلاً من الله. وعندما أوحى الله لكم كلماته في القرآن، قمتم بتحويلها وتأويلها وجعلتموها شريعة إرهاب. فماذا تتوقع مني أن أعرض عليك؟ ما عرضته عليك هو بالضبط ما تستحق. وإذا كنت رجل بحق فاقبل مني؟

فجأةً، استيقظتْ زوجتي وأضاءت نور الغرفة. ثم سألتني:

- هل أنت بخير؟.. يبدو وكأنك كنت ترتجف، وتتمتم وجسدك يتصبب عرقًا.

- إنه هو مرة أخرى، الشيطان... لماذا قمتِ بتشغيل ضوء الغرفة؟ لقد اختفى، كان واقفًا هنا بالقرب من الثلاجة وكنت أتجاذب أطراف الحديث معه. وتقريبًا توصلنا إلى صفقة.

وضعتْ زوجتي يدها الرقيقة على رأسي وجسدي وأخذت تمسح وتردد الأذكار والأدعية. ثم أضافت بحنان وعطف قائلة:

- لا يمكنك المضي في هذا الأمر بهذا الشكل. إنك تفتح الأبواب أمام الشياطين لكي تصل إليك. إنني أتوسل إليك أن تتوضأ وتغتسل قبل النوم، وأن ترتدي ثياب نوم تسترك، وأن تملأ قلبك بالغفران والحب، وأن تردد الأدعية والأذكار قبل النوم.

رجاءً، رجاءً أفعل ذلك. إذا لم يكن من أجلك، فأفعلها من أجلي أنا. لقد بدأت أخاف عليك ومنك.

وفي كل ليلة، كنت لا أقول الأذكار والأدعية، على أمل أن يظهر لي مرة أخرى عله يعرض عليَّ أفضل من عرضه الأول... ولكنه لم يظهر ثانية أبدًا.

وقد علمتُ بعد ذلك أن زوجتي - خلال الأيام المتبقية لنا في تايلاند - كانت تضع يدها على جبيني عندما أغط في النوم وكانت تردد الأدعية والأذكار الجميلة المحصنة من الشيطان.

- انتهت القصة -

- فيا دكتوري العزيز ما رأيك بقصتي، هل هي خيال وكوابيس؟ وها أنا ذا قصصتها لك بالتفاصيل المملة كما طلبت مني. ولو فعلا كان كابوسًا، فهل الكابوس يكرِّر نفسه. والله أنا مريض يا دكتور وشبح تايلاند لا يفارقني، وأنت تقول لا بأس عليك والفحوصات ممتازة.

- لقد عالجتُ المئات يا أخ داوود، ولكنني أتأسف، علاجك ليس عندي. قد تجده عند شيخ جليل.

- كيف يا دكتور لا يوجد علاج عندك لكوابيسي؟

- بما أنك قصصت لي هذه القصة بتفاصيلها، فعقلك سليم مائة بالمائة.

ثم استدرك:

- ولكن سأعمل فحصًا أخيرًا لأعصابك الشهر القادم علني أجد العلة، ولكن من الآن أريدك أن تحاول الحصول على القدر الكافي من النوم، وأيضًا حاول التقليل من الضغوط التي تتعرض لها، مارس الرياضة بشكل يومي وغيّر نظام أكلك كأن تكثر من الخضروات وتقلل من اللحوم. وأيضًا عليك بالصيام ولو ليوم واحد في الأسبوع فأنه يقلل السموم في الجسم وينقي الجسم والروح من الترسبات الضارة. وأخيرًا ابتعد عن المنبهات والمسكرات.

• • •

▪ خلاصة القصة :

الشيطان موجود فقط في عقولنا المريضة المليئة بالجشع والحقد. فلا تتبع وسوسة الشيطان الذي يسكن عقلك، حتى وإن راودك في حلم أو رؤية.. واحذر شياطين الإنس، فهم أنكى وأمرْ وأشدُ ضررًا.

حوار مع إمام جليل
أجله وأحبه في اللّه

سلوا مولانا الحسن البصري،

فإنه قد سمع ما سمعنا،

وحفظ ونسينا.

أنس بن مالك (رضي الله عنه)

- سلامٌ عليك يا أبا سعيد يا شيخنا الجليل، كنتَ والله شيخ زمانك وشيخ زماننا. لقد اشتقتُ إليك ولم أرك، أحببتك بالله وأحببتُ قولك وفعلك ولم أكن معك ولكني عرفت أن اسمك يردَّد من على المنابر وتفخر بكلامك صفحات المصادر.

- وعليك السلام ورحمة الله يا بني.

- رحمك الله. كنت تقول كلامًا وكأنك تعيش في عصرنا. ما رأيك في هذا العصر وهل هناك شبه مع عصركم؟

- هيهاتَ هيهات! أهلك الناس الأماني. قولٌ بلا عمل، ومعرفةٌ بغير صبر، وإيمانٌ بلا يقين، مالي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً! وأسمع حسيسًا ولا أرى أنيسًا!.

- ماذا تقصد يا شيخنا؟

- دخل القوم والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرموا ثم استحلوا.

- كيف ذلك؟

- جعلوا دين الله لعقة لسان. إذا سأل أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال نعم! كذب ومالك يوم الدين.

- وكيف كنتم أنتم من صحابة وتابعين؟

- كنت والله إذا رأيتهم رأيتَ قومًا كأنهم رأي عين، والله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل، حُلماءَ لا يجهلونَ، وإن جهل عليهم حلموا. ينتصبون لله على أقدامهم، ويفترشون وجوههم سُجَّدًا.

- ما شاء الله. يا ريتنا كنا معكم ونفوز كما فزتم. نحن نعيش في زمن النفاق والمال. يُقيَّم الإنسان أما بطلاقة لسانه أو بمقدار كسبه، يجمعونها لمكابرة الناس، والبعض لأمن الزمان... أهكذا كان الناس في زمانكم؟

- اسمع واعتبر! إياك والله ممن كان جموعًا، يدأب فيه الليل والنهار، يقطع فيه البلاد والقفار، من باطل جمعه، ومن حق منعه، وحمه فأوعاه، وشده فأوكاه، لم يؤدِ منه زكاة، ولم يصل منه رحمًا. إن يوم القيامة ذو حسرات، وإن أعظم الحسرات أن يرى أحدكم ماله في ميزان غيره.

- ما قصدك أن يرى أحدهم ماله في ميزان غيره؟

- مثلاً: رجل أتاه الله مالاً وأمره بإنفاقه في صنوف حقوق الله، فبخل به، فورثه الوارث، فهو يراه في ميزان غيره، فيا لها من عثرة تقال، وتوبة لا تنال.

- زدنا أزادك الله وغفر لك.

- كنا في أقوام يخزنون ألسنتهم وينفقون أوراقهم، وأصبحنا في أقوام ينفقون ألسنتهم ويخزنون أوراقهم.

- أي والله، القناعة كنز لا يفنى. أصدقك القول أنا ليس لدي مال كثير، فما أفعل بما عندي من قليل رزق؟

- يا بني: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا يأنس في عزها، للناس حال وله حال، وجهوا هذه الفضول حيث وجهها الله.

- ولكن الدنيا جميلة والكل يطلبها لأننا لا نعرف غيرها حياة!

- الدنيا تطلب الهارب منها، وتهرب من الطالب لها، فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها الطالب لها قتلته.

- ما نصيحتك لي؟

- اقرأ القران واحفظ حروفه واعمل بحدوده.. وانتبه يا بني، فهناك - قومٌ اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس، وقومٌ قرأوا القرآن فتدبروا آياته وتداووا به، وقومٌ أجادوا حروفه وضيعوا حدوده، استدروا به أموال الولاة، واستطالوا به على الناس- فلا كثر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم.

- يا سبحان الله.

- اسمع يا بني هداك الله. رحم الله امرئً نظر ففكر وفكر فاعتبر، وأعتبر فأبصر، وأبصر فصبر. وتذكر كذلك قولي هذا: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير حالته التي اختارها الله له.

ما أجمله من كلام أختم به مجموعتي القصصية. كيف لا وهو الذي قالت عنه أم المؤمنين عائشة "من هذا الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء". إنه كلام الإمام سيد التابعين الحسن البصري رحمه الله.. عاش يدعو إلى الله وسلك طريق السلام والمحبة ونأى بنفسه عن الفتن والقتال التي سادت أيام حياته.

نحن اليوم بحاجة إلى الحكمة والحب والتسامح لمعالجة غلظ طباعنا وجفاف عواطفنا وتلبد مشاعرنا وقسوة قلوبنا وتحجر عقولنا. وأيضًا نبذ الحقد والتعصب والجشع الذي ساد وعمَّ العباد والبلاد. والابتعاد عن الفتن وخاصة الدينية والعرقية منها فهي أسوأ من إغواء الشيطان وتقلبات الزمان، بل أقصر الطرق لهلاك الإنسان والعمران. نحتاج إلى احترام الرأي الآخر ونقد الذات واحترام حقوق كل من هو حيٌّ من بشر وحيوان وشجر ولكل إنسان حريته يديرها كما شاء حسب قدرة فكره وتوجهه.

ولنعلم أن كل من ساد من قبلنا قد باد وإنَّا أيضًا بائدون. البُشرى والسرور والدوام فقط لم تشاورا في أمرهم وجددوا من فكرهم وجعلوا حقوق الناس جُلَّ همهم وغاية مرادهم.

المؤلف في سطور

- كاتب ومؤلف سعودي.
- تخرج من إحدى جامعات الولايات المتحدة في علم الاقتصاد والإدارة.
- عمل كمحلل ومخطط أعلى في عدة شركات.
- متزوج وله من الأبناء أربعة.

- الإصدارات :

- حوار مع صديقي الإنساني (باللغة الإنجليزية)
- إفطار مع شيطان (باللغة الإنجليزية)
- يا أخي! عش ودع غيرك يعيش : مجموعة قصصية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣م

- اكسري القيد يا أماه : رواية . (تحت الطبع)

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net